الغَيْهَب

1

بدايات مُخِيفة



إبراهيم محمد

الغَيْهَبُ



حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من
الخيَّال

❖
رواية
بدايات مُخِيفة

❖
الغَيْهَبٌ
حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيَّال

❖
تأليف
إبراهيم محمد

❖
تصميم وإخراج
إبراهيم محمد

❖

❖
للتواصل مع المؤلف
Wordsonsnowtablet
Gmail | Facebook
❖
تنبيه

▪ هذا المؤَلَّف من قرِيحة مؤلِّفه، ولم يتم نقله أو اقتباسه من أي مصدر آخر.

▪ أي تشابه بين الرواية وأحداث وشخصيات واقعية هو محض مصادفة.

▪ لم يتم تدقيق هذه الرواية لغويًا

▪ تم إنتاج الصور باستخدام برامج الذكاء الاصطناعي، وباستخدام كلمات عامة دون وصف دقيق، مثال: "امرأة غجرية تجلس على أريكة وهي تدخن سيجارة"

الغَيْهَبٌ



حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيَّال

الـغَـيْـهَـبُ



بدايات مُخِيفة

تأليف

إبراهيم محمد

للتواصل مع المؤلف

wordsonsnowtablet@gmail.com



مقدمة

يقولون "إنَّ كل ما هو لك.. يليق بك".. بدءًا من ثيابك وحذائك.. إلى زوجتك وأبنائك.. إلى أصدقائك..

الكريم للكرام.. واللئيم للئام..

ولكنني لم أرَ في نفسي شيئًا يليق بالمصائب والكوارث.. فأنا ناظر مدرسة، تجاوزت الأربعين، وأعيش حياة سعيدة كريمة مع أسرتي..

أسرة مسلمة متديِّنة، كريمة الأصل والأخلاق، لا نفعل ما يغضب الله ولا نتعدى على خلق الله..

ويبدو أنَّ المصائب قد انزعجت من حالي، وأغاظها أنَّها لا تأتيني ولا آتيها، فعزمت على أنْ تجعل ما بقي من حياتي مصائبًا وكوارثًا..

و.. وهذه حكايتي.. أو حكاياتي..

تمهَّل.. قبل أن تمضي.. اسمي هو (عطيَّة).. تقول عطيَّة لمن؟.. فأقول عطيَّة من الله لأبي وأمي.. لا.. لست عطيَّة للمصائب..

1

اكتئاب

ما هو؟.. هل هو جنون.. أم قدرة خاصة.. أم حالة مرضية؟.. ستأخذ وقتها وتنقضي..



فتحت جفنيّ وأبصرتهم من حولي، زوجتي وأبنائي وأخي وأسرته، القلق في عيونهم والهم في ملامحهم والتحفز في أطرافهم، وضباب كثيف أسود يتصاعد من أبدانهم وينقض على روحي ويكتم أنفاسي.

الحمد لله.. الحمد لله.. الشكر لله.. أبي.. أبي.. الكلمات تخرج من أفواههم لا أميَّز مصدرها والدخان الأسود الخارج منهم يتلاشى بسرعة، نجيش يتعالى وأحاول بجهد وتعب أنْ أتذكر ماذا حدث.

نعم أنا في المستشفى وآخر ما أذكره هو..

- ماذا حدث؟

خرجت مني خافتة ومرهقة ومتعبة، ولكن لم يهتم أحد بإجابة سؤالي، زوجتي مشغولة تقبل يديَّ ودموعها تجري على وجنتيها وابني وابنتي يحتضنان رأسي، وأخي وزوجته يرفعان أيديهما بالشكر والثناء على الله وابني الأصغر يشاهدنا جميعا من مكانه قرب الباب.

- حسدونا يا (عطيَّة)، حسدونا، عين لم تصل على النبي.

هذه من زوجتي ومن بين دموعها ونجيشها.

-حسبنا الله ونعم الوكيل، أولاد الحرام لايرضيهم إلا الشر وإيذاء الناس، الله ينتقم منهم.

هذه من أخي، كنت متعبًا ومرهقا جدًّا فلا أعلم من هم الذين حسدونا ولا من هم أولاد الحرام الذين يؤذوننا، مكدود ومُتعب كأنني قادم من رحلة شاقة طويلة على الأقدام ولا أريد من هذه الدنيا سوى أنْ أغمض عينيّ وأنام، ولم أقاوم هذه الرغبة فأغمضت عينيّ ونمت.

* * *

فتحت جفناي والمشهد مختلف عن السابق، زوجتي على كرسي بجوار سريري وقد جعلت كفيها المبسوطين فوق بعضهما على ذراع الكرسي وسادة لخدها والحزن لا يزال على حاله في ملامحها.

دخلت الحجرة ممرضة تدفع عربة عليها قوارير ومعدات.

... يا ربي متى ينتهي هذا العذاب واستريح...

سمعت هذه من الممرضة، سمعت! هل هذا هو التعبير الصحيح؟، لم أر شفتيها تتحركان، إنها منهمكة في تبديل كيس المحلول المتصل بأنبوب طويل ينتهي في وريد يدي.

***... إيجار الشقة وقسط السيارة ومصاريف البيت والأولاد كلها اجتمعت معًا في آن واحد... ***

مرة أخرى أدرك أن هذه من الممرضة، ولكن..

-أبا أحمد.. مستيقظ أنت؟

هذه من زوجتي فالتفت برأسي متأنيًا إليها..

***... يا رب.. يا رب عافه وارجعه إلينا سالما، إلى بيته وأولاده وإليّ، يااا رب... ***

هذه من زوجتي وأيضًا دون أنْ تحرك شفتيها، ابتلعت ريقي وبخفوت قلت:

- زينب..

*... يا رب.. يااا رب خذ بيده، يااا رب عافه... *

مرة أخرى هذه من زوجتي، كنت راغبًا في ضمَّها إليَّ وأخبرها أنّني بخير حال وأن تهدأ بالاً وأنْ يستكين قلبها ويستريح وأنَّ لوعة دُعائها تحرق قلبي، ولكنني كنت أعرف أن إدراكي لما يدور في ذهنها هو ما أوصلني إلى هذه الحال، نعم إدراك يصل إلى درجة أن أفكار من حولي تبدو واضحة كأنني أسمعها بأذنيي، ولكي لا أعيد الكرّة تفتق ذهني في التو عن فكرة بسيطة، سأرد فقط على الكلام الخارج من بين شفتين تتحركان، ولقد تحركت شفتاها حين كررت استفهامها بحنان أكبر :

- أنت مستيقظ ؟

- نعم يا زينب، كيف حالك وكيف حال الأولاد؟

- الحمد لله، ألف حمد وشكر لله، جميعنا بألف خير، لا ينقصنا إلا وجودك بيننا.

- أين هم؟

- أصررت على أنْ يعودوا للبيت، أرادوا البقاء بجوارك ولكنني صرفتهم حتى يدركوا مدارسهم، وصرفت أخيك وزوجته بعد أن وعدتهم بأنني سأبقى بجوارك وسأبلغهم ما يستجد.

- الحمد لله.

*.... يااا رب، كن معه، عافه وارجعه إلينا، يااا رب... *

عادت أفكار زوجتي تقتحم ذهني ولكن هذه المرة كنت مدركًا أنَّ هذه أفكار في رأسها وليس كلمات تخرج من بين شفتيها.

أنهت الممرضة مهمتها وخرجت مولية لنا ظهرها وتدفع عربتها أمامها، وهنا أدركت للمرة الثانية منذ يقضتي هذه حقيقة جديدة، الممرضة يعج رأسها بالهموم والأفكار وولكن حين التفت لزوجتي بعيدًا عن الممرضة كنت استمع أفكار زوجتي فقط، فهل توقفت الممرضة عن التفكير أم.. أم أنني اسمع أفكار من هو أمامي فقط أم.. من يواجهني وجهًا لوجه؟.

هنا رفعت يدي نحو الممرضة وجاهدت لرفع صوتي:

- معذرة يا..

هنا رفعت زوجتي صوتها منادية الممرضة فالتفتت نحو زوجتي.

***... ماذا تريدين أنت أيضا، ألف همٍ يشغلني، ماذا تريدين؟... ***

نعم أسمع أفكارها واضحة جليّه، في حين أشارت زوجتي نحوي فقلت:

- ماء، أريد شربة ماء.

هنا أفسدت زوجتي تجربتي قبل أن أكملها فمدت يدها بسرعة لكأس بجواري وأخذت تسقيني واستدارت الممرضة لتكمل خروجها من الحجرة.

كلا لم تضع الفرصة، لا يزال لدي عقل لا يهدأ من الأفكار، التفت لزوجتي..

***... يا رب عافه، ارجعه إلينا.. آمييين... ***

لأبدأ التجربة

***ما لنا بعدك سواه ي... ***

أغمضت جفنيّ ولم أعد أسمع شيئًا، أبقيت عينيّ مغمضة لبرهة ثم فتحتهما.

... لاده، لبيته، لي، لأخوته، لك...

أغمضت عيناي وعدت أفتحهما..

***... بابه، لمدرسته وعمله، يا رب أجب دعائي، آمين... ***

نظرت أمامي ولا زلت أفكر وأتأمل في الحقيقة الجديدة، أستطيع سماع أفكار من أبصره بنظري ولكن ما هو المدى المحدد لهذه القدرة، هل يجب أن يكون الشخص المعني قريباً مني، أم لها مدى معين، أم بلا مدى، طالما هو أمامي فأنا أسمع أفكاره؟

هذا السؤال لم يمنع شعور الارتياح الذي يغمر كياني لاكتشافي قدرتي على التمييز بين سماع الأفكار وسماع الكلام، ارتياح جعلني أُغمض عينيّ وجسدي يرتخي ويغوص في الفراش واستمع لحديث زوجتي عن أخبار أسرتي وقلقهم عليَّ.

هذه اليقظة مختلفة تمامًا، أشعر أنَّ ذهني صاف وأفكاري واضحة وخواطري مرتبة وقدرتي على التحليل والاستنباط أفضل.

و لكن يبدو أن صوت زوجتي مع الارتياح الذي يغمرني جعلاني أسرح بعيدًا إلى أربعة أشهر خلت..

إلى البداية..

بداية الجنون..

جنوني..

*** * ***

واقفًا في حجرة المدرسين في المدرسة التي أنا مديرها، أتحدث إليهم عن التغيرات المتسارعة في البيئة التعليمية في السنوات الماضية..

***... وننهل من عظيم حكمته التي منَّ الله بها عليه من دوننا... ***

هذه من مدرس اللغة الإنجليزية للصف السادس الابتدائي، كانت خافتة وبعيدة، تجاهلتها لظني أنني توهمت قوله خاصة وأنني لم أره يفتح شفتيه.

... يا إلهي ما أضخم بطنه!، لا شك أنه يجعل كل مرتَّبة في شراء الطعام، تُرى هل يشارك أسرته أم يتركهم جوعى ؟.. لا أظنه يشاركهم، ربما...

هذه من مدرس العلوم للصف التاسع وكانت واضحة كأنه قالها في أذني ولكنني تجاهلتها للعذر السابق.

... كيف أصبح هذا الأحمق مديرًا للمدرسة؟، حقا أنه زمن الواسطة والمحسوبية، أو لعله اشتراها؟ حتمًا اشتراها، لقد قام برشوة ضعاف النفوس كي يصير مديرًا، انظروا لبطنه، هل هناك إنسان شريف له مثل هذه البطن، بطن تضخّمت وكبرت من المال الحرام...

هذه من مدرس مادة الرسم.

***...... ***

.....

***....... ***

هنا بلغ السيل الزُبى، وانفجرت كالقنبلة في المدرسين وانطلق لساني بالتهديد والوعيد لكل من يسئ الأدب ويتجاوز حدوده، لأجد نفسي محاطًا

بالمدرسين وهم يحاولون تهدئتي وقد أخذهم العجب مني ويحاولون معرفة سر ثورتي، التفت بغضب وغل شديد إلى مدرس مادة الرسم وصحت:

- هذا المنصب نلته بتعبي واجتهادي وليس بالرشوة ومال الحرام.

وجم المدرس وكانت المفاجأة ظاهرة في ملامحه ولكن تجاوز ذلك بسرعة وقال:

- بالتأكيد ومن ينكر ذلك يا حضرة الناظر!

زأرت وقلت بشراسة:

- أنت.. أنت قلت هذا الآن، وهذه البطن ربت من المال الحلال، هل تعرف ما هو المال الحلال؟.

مرة أخرى تجاوز المفاجأة التالية والتفت نحو المدرسين وهو يقول مدهوشًا:

- أنا.. أنا قلت هذا!، متى؟.

صرخت بقوة:

- الآن.. الآن قلته.

طبعاً أنكر وآزره المدرسون وهم يقسمون أنهم لم يسمعونه يقول هذا الآن أو في أي وقت آخر.

لم أهتم بإنكارهم فقد كنت على يقين تام من أنه قال ذلك ومن ثم التفتْتُ لمدرس العلوم وصحت:

و أنت.. ما شأنك ببطني؟ ما يعنيك أن أُطعم أسرتي أم أجوّعهم، أنت مدرس علوم، تدرِّس التلاميذ العلوم لا أنْ تدرس أو تتأمل في بطني، أتفهم؟

شَخص بنظره مذهولًا لوهلة ولكنه تمالك نفسه وأجابني :
- بالتأكيد يا حضرة الناظر، بالتأكيد.
واصل المدرسون تهدئتي ومن ثم جرّني نائبي ومدرّس آخر لحجرتي وهم يقسمون أن شيئًا مما قلته لم يحدث ولم يسمعه أحد ولا يليق بمجتمع المدرسين.
أقعدوني على كرسيّي وفي هذه اللحظة انطلق جرس المدرسة معلنًا انتهاء فترة الاستراحة وعودة التلاميذ لصفوفهم.
ليس هناك داعيًا للقول بأنَّ بقيّة اليوم الدراسي كانت كئيبة ومليئة بالحوادث المشابهة وكان آخرها من نائبي ونحن نسير متجهين نحو سيارتي وهو يحاول التخفيف عني.
ركبت سيارتي وألحت بيدي للنائب مودعًا وأنا انظر إليه
... لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لقد جُنَّ الرجل...
كدت أن أصرخ في وجهة بأنني لست مجنونًا وأنني أرجحهم عقلاً وأكثرهم اتزانًا ولكنني تمالكت نفسي وقد رأيت في ملامحه القلق حين أدرك الغضب الذي يعصف بي من ملامح وجهي، ولكنني قدت السيارة خارجًا من المدرسة بسرعة ومتجاهلاً كل شيء.
الجملة التالية من الأحداث كانت عند الخُضَري وعند الجزار وعند الفاكهاني.
الأول أراد وضع جزر قديم مع طازج وكنت أوصيته الطازج فقط ولكنني سمعته يقول إنني لن أدرك ذلك وإن أدركته فلن أكلّف نفسي بالرجوع إليه

والثاني أضاف شحمًا وقد أوصيته اللَّحم الخالص فقط والثالث سمعته وهو ينوي تكرار ما فعله الأول.

طبعا جميعهم أقسموا أنهم لم ينبسوا ببنت شفة وأنني مجنون أو أتوهَّم وأنهم عنوان الشرف والأمانة، في ذلك الحين لم أكن قادرًا على التمييز بين صوت الأفكار وصوت الأفواه، لأجل هذا لا عجب حين استخدم كلمة "سمعت" للتعبير عن إدراكي للأفكار .

بلغت منزلي وأدخلت السيارة في المرآب وولجت البيت من الباب الداخلي متجهًا إلى المطبخ لتستقبلني زوجتي فيه بالترحيب مبتسمة الوجه.

- أهلاً أبا أحمد، يعطيك العافية.

***... خيرا.. اللهم اجعله خيرا..ماذا يضايقك يا عطية؟... ***

هذه من زوجتي وأنا أعطيها المشتريات وكالعادة كانت مسموعة في رأسي كأنَّها قالتها بشفتيها، اندفعت أروي لها أحداث اليوم وهي تتفاعل معها بالصمت أو التأييد أو اللوم.

دخلتْ المطبخ ابنتي (خديجة) يتبعها ابني (أحمد) وقد جذبتهم أصواتنا لأدرك في هذه اللحظة أنني نسيت إحضار ابني الأصغر (معتصم) من المدرسة.. المدرسة التي أنا ناظرها.

*** * ***

أمضغ طعامي ببطء وأنا جالس إلى مائدة الغداء وإلى يميني زوجتي فابنتي (خديجة) وإلى يساري ابني (أحمد) فـ(معتصم) وأنا أستمع لابني (معتصم).

-.. أخبرني الأُسْتاذ (منير) إنَّ أبي مشغول وهو سيأخذني للبيت.

أخذ رشفة من الشوربة بملعقته وأكمل قائلًا:

- ركبنا سيارته إلى بيتنا وأنزلني أمام البيت وانصرف.

قالت زوجتي وهي تمد له يدها بملعقة رز :

- بارك الله فيه، ابن ناس.

.. سأؤجل موضوع الحذاء إلى ما بعد، أبي مُتعب ولن أزعجه بذلك

هذه من ابنتي (خديجة).

*** هل أخبره؟، لا أظنه يوافق، الرحلة يوم غد، ولا أجرؤ على طلب موافقته وهو منزعج ***

هذه من ابني أحمد.

***.. حذاء جميل، هل سيبقى الحذاء إلى بعد غد؟، لا أظن ***

هذه من ابنتي (خديجة).

لم انتظر أكثر من هذا فقلت:

- ما ثمنه يا (خديجة)؟

نظرت إليَّ والدهشة على وجهها وانتظرت حتى ابتلعت ما في فمها وقد أوشكت أن تغص به وقالت متسائلة:

- ثمن ماذا يا أبي؟

نظرت لها بلوم لتمثيلها الغفلة وقلت:

- الحذاء الذي قد لا ينتظر إلى بعد غد؟

حدقت وجوههم إلى وجهي متسائلة عمَّ أتكلم؟ وإن كان وجه ابنتي (خديجة) يزيد عنهم دهشة قبل أن تسأل :

- كـ.. كيف علمت يا أبي؟

هنا تنبهت لأوَّل مرَّة أنَّ ما سمعته من كلامهم كان أشبه بحديث النفس أو الخواطر، ولكنه كان واضحًا ومسموعًا.

تجاوزت أفكاري وقلت والضيق يحتشد في صدري:

- ألم تخبرينا الآن؟ أم كنت تتحدثين لأمك فقط ؟.

نظرة قلق ورهبة في عيني زوجتي وهي تقول :

- سلامتك يا أبا أحمد، البنت لم تقل شيئًا.

ارتفع صوتي وأنا أقول:

- لم تقل شيئًا! كلامها عن الحذاء وثمنه ولم تقل شيئًا، أنتِ أقرب لها يا (زينب) ولم تسمعي حديثها؟

أجابتني زوجتي وهي مدهوشة :

- لم أسمع شيئًا من ذلك ولا أظنّها قالت كلمة عن أي حذاء.

أردت أنْ أصر على ما أقول ولكن التوتر والقلق في وجوه زوجتي وأبنائي جعلني أتجاوز ما يحدث وأقول :

- يبدو أنَّني متوتر وتخيَّلت هذا، وأنت يا (أحمد)؟، إلى أين رحلتك؟.

مرة أخرى ما كان من أمر (خديجة) تكرر مع (أحمد)، بلغ مني الضيق مبلغه فنهضت متجهًا إلى الحمَّام لأغتسل وأتوضأ لصلاة الظهر التي عادةً

ما نصليها قبل الغداء، أنهيت الوضوء وتوجهت للحجرة الواسعة التي اعددتها كمكتب لي وكمصلى لنا، وناديت بصوت عالٍ:

- الصلاة، الصلاة يا أولاد.

أقبلَوا وأتخذوا أماكنهم للصلاة بوجوه واجمة، وهنا لاحظت أمراً غريبًا ومختلفًا فيهم.

*** * ***

كان هناك دخان يخرج من ثيابهم، دخان أسود لا يشوبه لوناً آخر، كان ضئيلًا ولكنني أراه بوضوح والغريب في هذا الدخان أنه لا يتصاعد لأعلى بل يتجه نحوي وبالأخص نحو قمة وجهي.

أشرت إلى الدخان وسألت:

- ما هذا؟

نظروا إلى بعضهم ثم نظروا جميعًا إليَّ في قلق وتساؤل وتكلمت زوجتي :

- عمَّ تتكلم؟

قلت:

- هذا الدخان الأسود الخارج من ثيابكم.

أخذ كل منهم ينظر لثيابه وثم إلى ثياب الآخرين قبل أن يرفعوا إليَّ رؤوسهم والاستغراب حالهم.

هنا اقتربت مني زوجتي واحتضنتني بقوة وهي تقول:

- أبا أحمد.. أبا أحـ...

و انفجرت بالبكاء وهي تقول كلمات لا استطيع تمييزها وسط بكائها وكانت هذه إشارة لـ(أحمد) و(خديجة) ليندفعا نحوي معانقين وهم يبكون، ابنتي (خديجة) من الخلف و(أحمد) أحاطني وأمه وأخته بيديه وحتى ابني الأصغر (معتصم) لحق بهم وأحاط فخذي الأيمن بيديه وهو يبكي.

لم استطع تمالك نفسي وأجهشت بالبكاء وقد أدركت أنني على حافة الجنون.

*** * ***

دخلت حجرة النوم للقيلولة لأجد زوجتي تمسح دموعها بكفيها معًا، هنا بزغت في ذهني صورة ابنتي (خديجة) وهي تنهي الثانوية العامة ومن ثم الجامعة وثم وهي تعمل كطبيبة وصور من زواجها ولكن صورة الزوج مبهمة، يبدو منها هيئة رجل أنيق، غريب هذا، الصور مبهمة في ذهني كأنني أشاهدها من وراء زجاج مغبر، وفي كل صورة كنت واقفًا وزوجتي تحتضن ذراعي وننظر معًا إلى ابنتنا، ولا أسمع أصواتًا، تفكَّرت هُنيهة قبل أن يراودني إحساس غامض أن مصدر هذه الصور هو خيال زوجتي.

تكرر الأمر، مرَّة صور لابني (أحمد) وأخرى لابني (معتصم) وثالثة لي ولزوجتي وقد أحاط بنا أبناؤنا وأطفال كُثر.

كم شعرت بالحزن والأسى لزوجتي المسكينة، المسكينة رسمت في مخيلتها عالمًا كاملًا لنا ولأبنائنا ومستقبلنا جميعًا، وها هي الصورة تتحطم قبل أن يتحقق شيء منها.

جلست بجوارها واحتضنت كفيها بكفيي وهمست:

- كل شيء سيكون بخير يا (زينب).

قالت بصوت خنقته الدموع:

- إن شاء الله يا (عطيَّة)، إن شاء الله، الله كبير وعظيم.

قلت بصوت خافت ومتحشرج:

- هي حالة وستمر.

- بالتأكيد يا عمري، بالتأكيد، لابد أنَّك أنهكت نفسك بالعمل.

- سأقِيلُ وحين استيقظ سأكون أفضل حالًا.

أخرجت كفها اليسرى من بين كفي وأزاحت الغطاء ورتبت الوسادة وهي تقول:

- إن شاء الله، إن شاء الله، تعب وسيزول.

لم أستطع الحديث أكثر من ذلك فاضطجعت في فراشي وأغلقت عينيّ وغرقت في نوم عميق والأمل يحدوني أنني حين أصحو سيكون هذا كابوس وانقضى.

*** * ***

استيقظت قبل آذان المغرب بساعة، نهضت وتوضأت وصليت العصر.. خرجت من حجرة النوم إلى البهو لأجد زوجتي تقطف أوراق الملوخية وهي تدرّس ابني (معتصم) مادة الحساب، تهلل وجهها لرؤيتي وقالت :

- نوم العافية يا أبا أحمد.

- الله يعافيك يا (زينب)، سأجلس في الواحة.

- خمس دقائق وآتيك بالشّاي.

و الواحة اسم أطلقته على شرفة واسعة لحجرة كبيرة في الطابق الأول، وتطل على مشهد رائع من الصحراء والأشجار وبيوت قليلة متباعدة وهي على خلاف الشرفة المقابلة لها في الجهة الأخرى من البيت والتي تطل على المدينة بزحامها وضجيجها.

قعدت على كرسيّي وأطلقت بصري في المشهد أمامي وأنا أفكر بعمق في أحداث اليوم، أنهمكتُ في التفكير حتى أخرجني منه صوت أقداح تُوضع على المنضدة الصغيرة والمستديرة إلى يميني وزوجتي تقول :

- ألذ شّاي بالنعناع لزوجي الغالي.

و قعدت على كرسيها وأخذنا الحديث حتى أننا نسينا كل شيء عن حوادث اليوم أو.. تناسيناها.

- سأعرض نفسي على طبيب نفسي.

خرجت هذه الجملة من بين شفتي بدون مقدمات.. خرجت مسرعة مندفعه كأنني أخشى أنْ يوقفها أحد.

وجمت زوجتي برهة وتبخّرت لحظات الطمأنينة والهدوء التي نعمنا فيها.

ثم تكلّمت ببطء:

- لعلّها تكون حالة طارئة، لعلّها ذهبت ولن تعود.. لعلها إرهاق وتعب من ظروف الحياة.

- وما الذي سيمنع تكرارها؟

سكتت ولم تتكلّم ولكنني أتخذت قراري.. لن أنتظر حتى أُجن، يجب أن أعرف ما يحدث لعلي أُدرك نفسي قبل الجنون الكامل.

*** * ***

لم يكن اليوم التالي في المدرسة أفضل من سابقه، ولاحظت تحاشي المدرسين النظر إليَّ، مساعدي يدخل مكتبي وهو ينظر إلى قدميه وكأنهن بزغن فجأة، ويبحث طوال الوقت عن قلم في جيب بذلته الداخلي بحيث لا أرى وجهه، أما الغريب هو دخول مدرس مادة التكنولوجيا إلى مكتبي بظهره ويقف أمامي وهو يفرك وجهه بكفيه مخفيًا ملامحه.

- ما هذا يا أُسْتاذ (حسام)؟

و هو يواصل فرك وجهه:

- خيرًا يا حضرة الناظر؟

- تدخل بظهرك ولا تكف عن فرك وجهك كالأجرب.

- معذرة يا حضرة الناظر ولكنني مصاب بحساسية شديدة وأخشى أن تكون معدية.

- حساسية؟ ... ومعدية!، ولماذا لا تلازم بيتك؟

- هذا ما جئت لأجله، أحتاج يومي إجازة.

نفد صبري قبل نهاية اليوم الدراسي بنصف ساعة .. عقدت كفي على مكتبي وقلت لنائبي بنفاد صبر:

- حسنا، ماذا يحدث؟

قال النائب وهو يواصل إخفاء وجهه متظاهرًا بالبحث عن شيء ما في جيب بذلته:

- وماذا يحدث يا حضرة الناظر؟

قلت في ضيق:

- الأساتذة نبتت لهم أرجل فجأة وأصيبوا بالأمراض المعدية وأنت جيبك مثل مغارة (علي بابا) تبحث فيه عن القلم طوال النهار، ماذا هناك؟

-...

- لماذا لا تجيب؟

- حضرة الناظر.. هناك... هناك إشاعات بين المدرسين..

صمت وأطال الصمت فقلت أحثّهُ على الكلام:

- إشاعات عن ماذا؟

تكلم بسرعة كأنه يزيح عبئاً ثقيلاً عن صدره:

- إنّك تقرأ أفكار من حولك.

أصابتني الدهشة من قوله وقلت والعجب في صوتي:

- أقرأ أفكارهم ؟!.. أي جنون هذا؟

تكلم متمهلاً ومصرًا على إخفاء وجهه:

- ما ظننت أنك سمعته من المدرسين بالأمس، لم يقله أحدٌ منهم ولكنّها..

- ولكنّها؟
- ولكنّها كانت أفكارًا تدور في رؤوس بعضهم.
زمجرت وقد أذهب غضبي دهشتي:
- ماذا؟ كف عن إخفاء وجهك كالأطفال وقل لي من أخبرك بذلك؟
كشف عن وجهه ببطء وهو يقول:
- إشاعات يا حضرة الناظر.. إشاعات تزرع العداوة والبغضاء بينك وبين المدرسين.
*.. أنت ناظر رائع.. أنت طيب.. أنت رائع ونشيط.. يجب أن أحافظ على التفكير الإيجابي.. اللهم لا تجعله يقرأ أفكاري.. *
- أُسْتاذ (منير)، دع عنك تلك الأفكار الحمقاء وأخبرني من يقول هذه الإشاعات؟
*.. هل سمع أفكاري.. فكر بطريقة إيجابية.. ناظر مدرستنا من أفضل النواظر في الدنيا.. *
- أُسْتاذ (منير)..
- لا أحد يعلم مصدر الإشاعات، أنت تسمعها دون أن تعرف من ينقلها، تسمع أصواتًا من نافذة حجرتك فلا تعلم من يتكلم.
كنت أعلم يقينًا أنه يعرف ولا يريد أن يخبرني، أشرت له بالانصراف، فلما وصل الباب ناديته:
- أُسْتاذ (منير)..
التفت إليَّ فقلت:

- التفكير الإيجابي أمر جيد، حافظ عليه.

النظرة على وجهه أطفأت غضبي منه.. هل هذا صحيح؟.. هل أنا أقرأ أفكار من حولي؟.. لكنها تبدو مسموعة.. كأن صاحبها ينطق بها.. هل يحرك شفتيه؟.

لأول مرة انتبه لهذا الأمر، لقد فاتني الانتباه لحركة شفاههم، وضوح الصوت جعلني أوقن أنهم يتكلمون.. أقرأ الأفكار!.. هل جنّ المدرسون؟.. وماذا ينفعهم إخفاء وجوههم إذا كنت أقرأ أفكارهم..هل الوجه مسكن الأفكار أم المخ؟.. أقرأ الأفكار!.. أي جنون هذا؟.. الفكرة نفسها تثير الرعب والفزع.. أفهم قلق وخوف المدرسين.. أنك ستقف عاريًا أمام من يقرأ أفكارك.. لن يكون هناك ما تخفيه.. مشاعرك.. تصوراتك.. خيالاتك.. ذكرياتك.. أُمنيّاتك..ناهيك عن ألاعيب النفس حين تتخيل شخص في صورة لا تليق به لأجل فُكَاهَةٌ... وأنت تعرف أنه يقرأ أفكارك.. أمرٌ مفزع أن تجد من يتلصص على تفكيرك.. شعور الأمان سيتلاشى ويسكن الخوف قلبك ويصبح همّك إخفاء ما يدور في ذهنك.. يا ربي ما هذا الجنون؟..

*   *   *

-أبي.

انتزعني صوت ابنتي (خديجة) من أفكاري وأنا جالس في واحتي بعد العصر، فالتفت إليها :

- نعم يا (خديجة).

قعدت واضعة يدها فوق الأخرى على المائدة إلى يميني وقالت بحزن:

- سمعتك بالأمس تتحدث إلى أمي عن ذهابك إلى طبيب نفسي.

لم أعلّق على كلامها مكتفيًا بالنظر إليها واغرورقت عيناها بالدموع وهي تُكمل:

- أبي، أنت لست مجنونًا، أنت.. أنت.. لا أعلم.. كيف.. كيف عرفت.. لا أعلم.. الحذاء..

- خديجة.. خديجة.. لا أفهم شيئًا من كلامك، تمالكي نفسك يا بنيتي.

بكت ولم أمنعها حتى تُخرجَ ما في صدرها من حزن، طبعًا في مجتمعنا زيارة الطبيب النفسي تعني أنك ودّعت عالم العقلاء وأصبحت مجنونًا بأوراق رسمية، وأن تمشي على يديك في الشارع أو ترقص عاريًا على سطح المنزل أو تضع حَلَّة طعام على رأسك وأنت تقف في الشرفة هو حقك الطبيعي كمجنون، انتظرتها حتى كفكفت دموعها وبصوت حزين متقطع تكلّمت:

- الحذاء، لم أخبر أحدًا عن الحذاء، رأيته في محل أحذية وأعجبني ورغبت في شرائه ولم أخبر أحدًا عن ذلك، بالأمس على مائدة الغداء كنت أفكر أن

أسألك أن تعطيني ثمنه.. كنت أفكر ولم اتكلَّم وفُوجِئتَ أنَّك تسألني عن ثمنه.. واليوم..

- وأنا كذلك يا أبي.

هذه كانت من ابني (أحمد) الذي أنضم إلينا وقاطع حديث شقيقته وأكمل وهو يقعد على الكرسي قبالتي:

- حديثك معي عن مشكلتي في المدرسة، لقد كنت أُفكّر فيها ولم أتحدث عنها لأحد، وبالأمس عن الرحلة التي هي أيضًا لم أخبر أحدًا عنها.

مرة أخرى حكاية قراءة الأفكار، وهذه المرة من أبنائي، هل أقرأ أفكار من حولي؟، وكيف حدث هذا؟ ومتى؟

قلت لهم:

- ليضع كل منكما فكرة في رأسه.

عقد (أحمد) حاجبيه وشخص ببصره في حين أغمضت (خديجة) جفنيها ووضعت راحتها اليمنى على جبينها كأنها تعتصر رأسها بحثًا عن فكرة.

*......

......

....*

- لا أسمع شيئًا.

قلتها بكل أسف، رغم أنَّ موضوع قراءة الأفكار يخيفني ولكنه يبقى أفضل مئة مرّة من الجنون.

* يا ربي.. يا رب.. *

هنا قلت :

- الآن (خديجة) تقول "يا ربي، يا رب".

هنا قفزت (خديجة) من مقعدها وهجمت علي تعانقني وهي تبكي وتناديني وفي اللحظة نفسها أقبلت زوجتي مع ابني (معتصم)، وفي وقت واحد حاول (أحمد) و(خديجة) شرح الأمر لأمهم التي لم تفهم شيئًا لتداخل صوتيهما فتكفّلت أنا بشرح وتوضيح الأمر لها أو ما ظننت أنه وصفٌ لحالتي.

ارتفع صوت آذان المغرب ونحن نتحدث بخصوص هذا الأمر ونجْري التجارب،هل استطيع قراءة أفكار أسرتي، كل منهم وضع فكرة في رأسه، حتى ابني (معتصم) حاول بجهد كأن الأفكار أشياءٌ يصعب توليدها، أكثر من ثلثي التجارب فشلت والثلث الأخير نجح بعضه دون معرفة الأسباب.

أيًّا كانت الأسباب، فإن هذا الأمر أراحني كثيرًا، صحيح أنني لم أخرج من دائرة الجنون ولكنني ابتعدت عن مركزها واقتربت من دائرة القدرات الخاصة، نعم إنَّها تُخيفني وتُخيفني حقًّا ولكنها أفضل ألف مرة من دائرة الجنون.

*   *   *

2

الطبيب النَفْسِيّ

كان الأمل يَحْدوني بأن أجِد تفسيرًا وعلاجًا لما أصابني ولكنه فتح بابا لأشياء أخرى..



- أنت بصحة جيدة يا أُسْتاذ (عطيَّة)، لا شيء يدعوك للقلق.
قالها الطبيب النفسي وهو يُراجع أوراقًا بين يديه وهو جالس إلى مكتبه.
قلت له:
- وماذا عن الأصوات التي أسمعها.
أمسك الطبيب بطرف ورقة بين أصبعين ونظر إليَّ وقال :
- أُسْتاذ (عطيَّة) لقد قمت بكل الفُحُوص الضرورية وتأكدت من سلامتك النفسية والعقلية والأصوات التي تسمعها ليست إلا خيالات ناتجة عن ظرف نفسي معين وأتمنى أنَّ العلاج الذي سأوصِّي به سيُنهي هذا الأمر تمامًا.
*... المسكين يتمنى أنْ يكون من ذوي القدرات الخاصة، يجب أن يكون ممتنًا أنه لم يُجن... *
- أنا ممتن حقاً لله أنني لم أُجن ولا أتمنى أنْ أكون من ذوي القدرات الخاصة.
استمتعت بالدهشة على وجهه والتي أخرجته من السلوك المهني البارد الذي يتعامل به معي وتابعت كلامي:
- نعم لقد سمعتك وأنت تقول.. كلا.. وأنت تفكر في ذلك.
أطال النظر إليَّ وأُستغرق في التفكير ولم أستطع أنْ أمحو ملامح التشفي من وجهي انتقامًا من سلوكه البارد واللَّا مُبالِي، إلا أنَّه قطع تفكيره وقال:
- حسنًا، فيما أفكر الآن.
أُسقط في يدي ولم أجد ما أقوله سوى:
- لا أعلم.

عاد إلى سلوكه البارد وقال:

- أُسْتاذ (عطيَّة)، لا أعلم كيف خمَّنت ما أُفَكر فيه ولكنه لن يغيّر تشخيصي ولكنني سأُعطيك عنوان طبيب مهتم بالظواهر غير العاديَّة ولعلك تجد عنده تفسيرًا ما، والآن.. هل تقود سيارة؟.

أدهشني سؤاله وانتقاله لموضوع مختلف وبعيد ولكنني أجبته:

- نعم.

قال وهو يدون شيئًا في ورقة صغيرة:

- حسناً، هذه الأدوية قد يكون لها تأثير على سرعة التفكير وربما زغللة بسيطة في النظر، لذلك من الأفضل التوقف عن السيّاقة طالما تستخدم هذه الأدوية.

ناولني الورقة ثم أخذ يبحث في البطاقات الصغيرة في صندوق زجاجي صغير على مكتبه وألتقط واحدة وأخذ ينقل منها إلى ورقة صغيرة ثم مدَّ يده بها إليَّ وكنت قد نهضت استعدادًا للخروج، أخذتها وهو يقول:

- هذا عنوان الدكتور (مصطفى الغريب)، وهو مُهتمٌّ بالظواهر والقدرات غير العاديَّة، لعلك تجد عنده تفسيرًا حين تَمُرُ به.

*** * ***

لم يعط العلاج نتيجة محمودة، التغير الذي حدث هو أنَّ الأصوات أصبحت بعيدة وخافتة بعد أنْ كانت واضحة، والحياة نفسها أصبحت جحيماً مستعراً،

ليس في المدرسة فقط، بل وفي كل مكان أذهب إليه، معرفة الناس أنَّني قد أقرأ أفكارهم جعلهم يسعون جاهدين لتجنبي، حتى أنني أبدو كمريض بمرض معدي والخلق يفُرُّون منه، ومازلت لا أعلم لماذا أقرأ بعض الأفكار دون غيرها، لم أعُد أطيق الحال الذي وصلته، لذلك تجدني بعد أسبوعين من زيارة الطبيب النفسي قد عزمت على زيارة الدكتور (مصطفى الغريب)، وفي صباح هذا اليوم اصطحبت زوجتي (زينب) وركبنا قطار الساعة العاشرة المتجه للمدينة الساحلية حيث عيادة الدكتور، وبعد أن عهدت بالمنزل إلى ابنتي (خديجة) وأوصيت الأولاد بالحرص والإلتزام.

كان القطار مزدحمًا والجو خانق لذلك بلغنا المدينة الساحلية وقد أوشكت روحانا على مفارقة أبداننا احتجاجًا على ظروف السفر، وبسبب أن قراري كان مفاجئِا لم استطع حجز مقصورة خاصة أو تذكرة الدرجة الأولى.

كان همُّنا الأوَّل هو العُثُور على فندق لوضع متاعنا ثم الانطلاق لعيادة الدكتور.

على مدخل المحطة كان سائقو سيارات الأجرة وكل ينادي على وجهته، وعثرنا بينهم على سائق وافق أن يأخذنا إلى فندق قريب من عيادة الدكتور.

الفندق نظيف وممتاز وقريب في الهيئة والخدمة من الفنادق السياحية المميزة لولا أنه بعيد عن الأماكن السياحية، ولعل ذلك هو سبب أسعاره المناسبة للإقامة القصيرة.

وضعنا متاعنا وتوجهنا فورًا نبحث عن عيادة الدكتور حتى وجدناها في الطابق الثالث من بناية كبيرة قديمة ونحن نرجوا أنْ يكون الدكتور موجودًا ولم يخرج للغداء أو أمر آخر.

في زمن الإنترنت والهاتف المحمول كان ما نقوم به أشبه بالعودة إلى الماضي حيث لا هاتف محمول ولا إنترنت ولعل هذا يعطي فكرة عن حالتي النفسية التي تعكس لهفتي لمعرفة ما أصابني وإيجاد علاج له.

*** * ***

أنصت الدكتور (مصطفى) لحديثي بانتباه شديد ولم يقاطعني إلا ليستوضح عن أمر ما، كنَّا وجدناه وحيدًا في عيادته وقد خرج موظف الاستقبال للغداء، وقد استقبلنا بالترحاب.

أنهيت كلامي وأبقيت نظري عليه في حين شبَّك هو يديه ووضع إبهاميه تحت ذقنه واُسْتُغْرق في التفكير، مضت بُرْهة قبل أنْ يضع كفيه مبسوطة على سطح مكتبه ويسألني:

- هل تعرف الكِلاب يا أُسْتاذ (عطيَّة)؟

فُوجِئْت بسؤاله ولكنني أدركت أنه للفت الانتباه أكثر منه استفهامًا، لم ينتظر ردّي وواصل الحديث:

- الكِلاب تُدرك خوف البشر والكثير من مشاعرهم ولكن يبقى الخوف هو الشعور الأكثر إدراكًا، كيف؟ هل هناك رائحة معينة يفرزها الإنسان عند

الخوف؟ هل ترى الكلاب في هيئة الإنسان ما يدل على خوفه؟ أم هو مزيج من الرائحة والهيئة؟ هل تفهم ما أقصد يا أُسْتاذ (عطيَّة) ؟

رددَت سؤاله بسؤال وأنا أجهل غايته:

- هل تريد أن تقول أنَّ بي شيء من الكلاب؟

ضحك وأطال الضحك حتى انتهى بابتسامة عريضة وقال:

- معذرة يا أُسْتاذ (عطيَّة) أنا أتحدث عن التشابه في الإدراك، كل ما أخبرتني به يا أُسْتاذ (عطيَّة) يشترك في شيء واحد، إنَّ الأفكار التي تسمعها هي أفكار سلبية ممزوجة بمشاعر الخوف أو القلق أو الشعور بالذنب، أنت لا تستطيع سماع الأفكار البهيجة والمشاعر الإيجابية، هذا يعني أن هناك شيئًا ما تشمَّه أو تراه أو تسمعه أو تدركه من الشخص المقابل، شيئًا يخبرك بأفكاره.

قلت له وأنا لا أستسيغ حديثه:

- لكنني أسمع الأفكار واضحة وليس فكرة عامة عن مشاعر الشخص وإحساسه.

هز رأسه موافقًا وقال:

- الشخص العاديُّ يستطيع أن يقرأ ملامح الناس ومعرفة الشعور العام الواضح كالفرح أو الحزن ولكنه لن يعرف سبب هذه المشاعر ولكنه قد يستطيع أنْ يخمَّن، والشخص الذكي يستطيع تخمين السبب من خلال علامات في هيئة الشخص وملابسه والظروف المحيطة، في حالتك يكون تحديد السبب أكثر دقة.

قلت وأنا غير مقتنع بحديثه:

- تريد أن تقول أن ما أسمعه هو قراءة لملامح الشخص وتعابيره!

- نعم، ولكن أقوى بكثير من قراءة الشخص العاديّ أو الذكي، كل كلمة في خواطرنا تترك أثرًا في ملامحنا، حين نفكر في السيارة مثلًا، تتشكل ملامحنا ونظرة عيوننا لترسم هذه السيارة، لا يستطيع أي شخص أن يميَّز هذه الملامح ولكن في حالتك يبدو أنك تستطيع تمييز هذه الملامح وتدرك أنها عن سيارة، بل لا استبعد أنك تستطيع تمييز نوعها ولونها ورقمها، لذلك ما يبدو لك هو سماع أفكار هو في الحقيقة قراءة ملامح من حولك.

تفسير غير مقنع لذلك قلت:

- لو كان هذا صحيحًا لكنت قادرًا على قراءة جميع الأفكار في ملامح أصحابها.

هز رأسه موافقًا وقال:

- هذا يعود بنا إلى موضوع الكلاب، أنت تستطيع قراءة الملامح حين يعاني الشخص من مشاعر سلبية معينة، حيث تتسبب هذه المشاعر في تشكيل ملامح الشخص بشكل أكثر وضوحًا بالنسبة إليك.

لم أستفد شيئًا منه سوى تفسير لم يقنعني ولكنه فتح آفاقًا جديدة، لذلك قلت وأنا أوشك على النهوض:

- هل هذا هو تفسيرك النهائي لحالتي؟

قال وهو يدرك إحباطي:

- أُسْتاذ (عطيَّة)، هذا رأي مبدئي، إذا كنت تريد رأيًا حاسمًا فهذا يحتاج إلى إجراء فحوص كثيرة ومكلِّفة، هل أنت مستعد لذلك؟

قلت بسرعة :

- بالتأكيد، أريد أنْ أعرف ماذا أصابني، أريد أنْ أعرف إذا كانت هذه حالة طارئة ستنقضي أم مُزْمِنة تحتاج عناية وعلاجًا، هل ستزداد مستقبلًا أم تبقى على حالها؟

نظر إليَّ وهو يُفَّكر عميقًا ثم أمسك ورقة وأخذ يدوَّن فيها شيء ما ثم مد يده بها إليَّ وهو يقول:

- هذا عنوان مستشفى ستقابلني فيه عند حجرة الاستقبال في العاشرة صباحًا من الغد، هل يناسبك هذا؟

هززت رأسي بالموافقة وأنا أنهض..

- والدخان الأسود؟

هذه من زوجتي الجالسة أمامي في مكتب الدكتور ولم تنبس ببنت شفة طوال الوقت.

التفت لها الدكتور مستغربًا وقال:

- أيُّ دخانٍ؟

شَرحتُ له الأمر في عُجالة فقال وهو يحدّق إلي:

- دعنا نُرجئ تفسير هذا إلى ما بعد الفحوص.

*** * ***

كان يوم المستشفى طويلًا مُرهِقًا، بدأ بلقاء الدكتور (مصطفى) في المكان والزمان الذي حددهما ومن ثم الانتقال من فحص إلى آخر ومن تِّقنيَّة تصوير إلى أخرى، فحص الرأس والأذن والعينين وأنا انتقل من قسم لآخر وزوجتي تركض بجواري والدكتور (مصطفى) يُمهِّد لنا الطريق ويساعدنا على تجنب طوابير الانتظار وتجاوز المواعيد التي نُسئل عنها في كل قسم، كل هذا كان قد يستغرق شهرًا بدون عونه ومساعدته.

بلغت الساعة السادسة مساءً وقد بلغ مني التعب مبلغه وأشفقت على زوجتي التي لم تتركني لحظة إلا مُرغمة من قبل الأطباء، جاء الدكتور (مصطفى) ليخبرنا بنهاية الفحوص، انطلقنا إلى الفندق وقد نسينا أو تناسينا أن نسأله عن الفحوص ولم نشتر طعامًا للغداء وأجّلنا الاتِّصال بالبيت إلى حين الرَّاحة أو الاستيقاظ من النوم.

لم ننمْ سوى ساعتين حتى أيقظني رنين الهاتف، كانت ابنتي (خديجة) تطمئن مع شقيقيها، تحدثت معهم وناولت الهاتف لزوجتي التي أيقظها حديثي وذهبت لأتوضأ، فرغت من الوضوء وزوجتي تُنهي الحديث مع الأولاد وتوصيهم بأنفسهم، أنهت حديثها وأرادت وضع الهاتف ولكنه رنّ مرة أخرى وهذه المرَّة كان الدكتور (مصطفى) يبلغنا أنَّ نتائج الفحوص قد تحتاج أسبوعًا وانه سيتصل بنا حين تكون جاهزة.

صلّينا ونزلنا لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم القريبة وقد قررنا العودة إلى منزلنا في قطار الساعة العاشرة صباحًا من يوم غد.

* * *

بعد نوم عميق استيقظنا لصلاة الفجر وتبعها أذكار الصباح؛ قامت الراحة وشعورنا بالانتعاش بتغيير خططنا وما عزمنا عليه، فقد رغبت زوجتي في التسّوق وشراء حوائج لأبنائنا، ورأيتها أنا فرصة في التمتع بيوم سياحي مع زوجتي على أنْ نعود في قطار الساعة السابعة مساءً، كان الوقت لا يزال مبكرًا فجمعنا متاعنا في حقائبنا وذهبنا للاستقبال في الفندق، وضعنا حقائبنا في الأمانات لأن الفنادق عادة تسجل خروج المقيمين عند الساعة الثانية عشرة، وتوجهنا إلى مقهى الفندق لتناول الشَّاي وبقينا هناك حتى الثامنة.

تناولنا الفُطور في أحد المطاعم القريبة من الفندق - تجنبًا لأسعار مطعم الفندق الباهظة- وانطلقنا، كان يومًا رائعًا ورغم أنني كنت اسمع أفكار الناس أحيانًا إلا أنني تجاهلتها تمامًا وحرصت على الاستمتاع بيومي ومشاركة زوجتي بهجتها حتى أننا نسينا سبب قدومنا إلى المدينة الساحلية.

عدنا إلى الفندق في السادسة مساءً، أخذنا حقائبنا من أمانات الفندق وتوجهنا إلى محطة القطارات.

* * *

حجزنا مقصورة خاصة بنا في القطار، قعدت على مقعدي وقبالتي زوجتي التي انهمكت في ترتيب الهدايا والحوائج في حقيبة اشتريناها لهذا الغرض.
نصف ساعة انقضت قبل أنْ أشعر بحاجتي لتغيير مقعدي فانتقلت للجهة الأخرى بجوار زوجتي التي ابتسمت وقالت :
- مللت المنظر أم تعبت من القعدة؟
- كِلاهما.
انتبهت في هذه اللحظة إلى رجل جالس في مكاني الأوَّل وهو يرتدي عِمَّة وثيابًا تقول أنه من أهلنا من الأرياف، متى جاء؟ وكيف لم أره حين دخل؟ وكيف دخل إلى مقصورة خاصة؟
انحنيت نحوه وقلت:
- يا أخونا، هذه مقصورة خاصة.
التفت إليَّ وسمعت زوجتي تقول:
- أبا أحمد.
تجاهلتها وقد أزعجتني جُرأة الرجل على دخول مقصورتنا وكررت قولي:
- هذه مقصورة خاصة.
نظر الرجل إليَّ وتجاهلني تمامًا في حين علا صوت زوجتي حاملًا قلقًا شديدًا وهي تقول:
- أبا أحمد، إلى من تتحدث؟
أشرت بكفي الأيمن إلى الرجل الذي واصل النظر إليَّ وقلت:
- إلى هذا الأخ، يا أخ هذه مقصورة خاصة.



واصل تجاهلي والغضب يستعر في صدري من تجاهله لي وصوت زوجتي يقول في ذعر:

- أي أخ؟ لا يوجد غيرنا في المقصورة.

التفت إليها لأجد الذعر في وجهها فعدت بنظري للرجل وقلت بحدة:

- ألا ترين هذا الرجل أمامك؟

في هذه اللحظة فُتح باب المقصورة ليظهر رجل آخر يرتدي ثيابًا مشابهة للأول.

صاح الأول بفرحٍ شديد وسعادة:

- سعيد!

و صوت زوجتي المذعور يأتيني من بعيد :

- لا يوجد سوانا في المقصورة يا أبا أحمد.

و هنا حدث شيء كلمح البصر، شيء عجز عقلي عن استيعابه في حينه.

أخرج الرجل الثاني من ثيابه سكينًا طويلًا أشبه بالسيف وانقضَّ بها على عنق الأول بضربة قوية فصلت رأس الأول عن جسده إلَّا من جزء بسيط ابقى الرأس الساقط على الصدر متصلًا بالجسد ولم تفارقه ملامح السعادة بعد.

هنا تجمدت مصعوقًا في مقعدي من المشهد قبل أن تحل عقدة لساني وأصرخ بكل قوتي:

- ألحقوناااا، يا هووو ألحقونااااا.

هنا لابد أنْ أتوقف قليلًا لوصف صفاتي الجسمانية، أنا رجل طويل القامة وممتليء الجسد وبطن كبيرة محترمة أمامي، تحرص زوجتي عليها بشدَّة لأنَّها "وجاهة" و"بطن وزير" ولا يصح لمن هو في مقامي ومركزي كناظر مدرسة أنْ يكون بلا بطن، ورأس أصلع من أعلى وشارب أسود كثيف وأنيق يليق برجل نشأ في الأرياف، الجميع يشهد أنْ شخصيتي قوية وهيئتي مُهِيبة، ولك أنْ تتخيَّل ماذا يقول الناس حين يرون هذه الشخصية واقفة على باب مقصورة في القطار وهي تولول وتصيح بكل قوتها:

- يا عااالم يا هووووه ألحقونااااا.. متله..تلووووه.. ألحقونااااا..قتته..

و زوجتي من خلفي تبكي وتصيح:

أبا أحمد،أبا أحمد، سلامتك يا أبا أحمد، ماذا أصابك..

لم أهتم وواصلت صراخي وأنا أشير إلى داخل المقصورة، تجمع الناس حولي وهم لا يفهمون شيئًا من كلامي وينظرون إلى داخل المصورة وإلى زوجتي الباكية، احتجت إلى عشر دقائق ورشة ماء على وجهي حتى بدأت أصوات الناس تبلغ مسامعي وتصل إدراكي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا هناك يا أُسْتاذ؟

- جن الرجل، لا حول ولا قوة إلا بالله.

- سلامتك يا أبا أحمد، ماذا حدث؟ ماذا أصابك؟

كان الناس قد أعادوني إلى مقعدي في مقصورتي، قلت لهم وأنا أشير للمقعد أمامي:

- قته.. قتل.. عنقه.. سع.. سعيد.. قتله.. سعد.. سيف.. ما.. ما.. مات.

وضع أحدهم يده على كتفي ويقول في إشفاق :
- لا يوجد شيء يا أُسْتاذ، انظر بنفسك، لا حول ولا قوة إلا بالله.
احتجت خمس دقائق أخرى حتى أدركت كلمات الرجل والناس، كانت المقاعد في المقصورة أمامي خالية من كل شيء وأي شيء، لا توجد جثث، ولا دماء أو أثر لشيء ما.
و انفضَّ الناس من حولي وكل واحد منهم يتصورني بطريقته وخلت المقصورة من الأصوات بإستثناء بكاء زوجتي.
مضت عدة دقائق حتى استطعت جمع شتات نفسي، والتفت إلى زوجتي وربتت على كتفها وهي تبكي بحُرقة، نظرت إلى ساعة الهاتف فوجدت أنَّه لا يزال أمامنا ساعة كاملة حتى نصل العاصمة.
هذا أمر جديد، لقد رأيت مشهدًا قُتل فيه رجل على يد آخر اسمه (سعيد)، الأول كان يعرف الثاني معرفة جيدة، بل أنَّه سُرَّ سرورا شديدًا برؤية القاتل، هل المشهد حقيقي أم تخيلته، هذه المرة بلا أصوات، بل بلا أُناس أمامي أقرأ ملامحهم إن صحّ تفسير الدكتور (مصطفى)، وقد كنت أنا بنفسي جزءً من المشهد، تحدثت إلى القتيل فالتفت إليَّ، نظر إليَّ وأنا أُكلِّمه، صحيح أنه تجاهلني ولكنه كان مُدركًا لوجودي، القاتل لم يعرني انتباهه، لقد انقضَّ على القتيل بسرعة البرق، ثمَّ؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ لقد أخذتني المفاجأة وتملَّكني الرعب والفزع فوجدت نفسي أُولولُ بلا وعي وغاب عني ما حدث بعد ذلك.

وجدت نفسي أحدِّث زوجتي بما رأيته أو تخيلته وهي لا تتوقف عن البكاء، كنت أعلم يقينًا أنني لا أملك سوى انتظار رأي الدكتور (مصطفى) إلى حين ظهور نتائج الفحوص.

وهذا الانتظار طويل، طويل جدًّا، أسبوع كامل، سأجن قبل أنْ ينقضي، كنت طلبت إجازة مرضية -بمساعدة طبيب- لمدة شهر لإجراء عملية جراحية، لم يكن هناك عذر آخر يسمح بطلب مثل هذه الإجازة الطويلة وقد انقضى أسبوع منها وبقيت ثلاثة أسابيع، وماذا بعد؟ لا أعلم، الأمل في الدكتور (مصطفى) بعد الله سبحانه وتعالى، هل سيجد تفسيرًا لحالتي؟ إنْ وجده فهل سيكون له علاج؟ كيف سينتهي أمري؟ بالجنون أم الشفاء، يا ربِّي لطفك بي.

*** * ***

أخذت رشفة صغيرة من كأس اللبن وأنا في المطبخ أفكر في نفسي، كان البيت قد عادت له الكآبة بعد حادثة القتيل في القطار بالأمس، وقد ظننا من قبل أنَّ الأمور ستؤول للأفضل، وأنا الآن في نفس الوقت في مطبخ منزلي أتذكر ما حدث بالأمس وأقلِّبه في ذهني لعلي أجد تفسيرًا.

- لقد رأيتني بالأمس.

رفعت رأسي إلى الصوت لأجده واقفا بالقرب من الباب ورأسه على صدره يقطر دما وقطعة صغيرة من اللحم تمنع انفصال الرأس عن العنق، هنا انطلقت حنجرتي بالصراخ:

- الحقونيييييي..

و لكن يبدو أن كياني قد سئم الصراخ ووجد أن فقدان الوعي طريقة أفضل في الهروب من الفزع، فسقط معانقًا الأرض بشوق شديد.

*** * ***

- كيف جئت إلى المستشفى؟

سألت زوجتي وأجابتني وهي تحتضن يدي بكفيها:

- سمعت (خديجة) صراخك وهُرعت إلى المطبخ لتجدك فاقد الوعي على الأرض وكأس اللبن محطمًا بجوارك، حاولت المسكينة إنعاشك ولم تفلح، وركضت إلينا تنادينا وهي هلعة، حاولنا إنعاشك بالماء والعطور ولم نفلح، هرع (أحمد) إلى جارينا (عبد الغفار) و(أبي صلاح)، وجاءوا جميعًا وحملوك إلى المستشفى.

- جزاهم الله خيرًا، وكيف وصل أخي وزوجته بهذه السرعة؟

- سلامتك يا أبا أحمد، أنت في المستشفى منذ أربعة أيام..

قاطعتها مدهوشًا :

- أربعة أيام!

قالت وهي توشك على البكاء :

- نعم، كنت في غيبوبة ولم يستطع الأطباء معرفة سببها، لذلك اتصلنا بأخيك وحضر على وجه السرعة مع زوجته.

أربعة أيام.. أشعر أنني سقطت فاقد الوعي منذ لحظات وليس منذ أربعة أيام، هنا تذكرت ما حدث، لقد شاهدت القتيل، كان واقفًا عند باب المطبخ ويقول أنني رأيته بالأمس، يقول؟ ورأسه يتدلى على صدره!

ما هذه الأوهام والخيالات؟ من سماع أفكار من حولي إلى تخيل أمور لم تحدث، لقد زاد الطين بلّة، تحول الأمر من احتمال وجود قدرة خاصة إلى جنون أكيد.

أشعر بالعافية التي صحوت وهي تملأ بدني قد بدأت تفارقني والأرهاق يغلبني، أغمضت عينيّ وأنا استمع لزوجتي وهي تحدثني بأحداث الأيام الماضية، لحظات و..

كان يومًا رائعًا وصاخبًا، فقد صحوت من النوم ممتلئًا صحة وعافيةً وإحساسًا بالقوة يتدفق في كل خلية من جسدي، أصْرَرْت على مغادرة المستشفى وأصرَّ الأطباء على بقائي يومًا آخر، لكنني كنت أكثر إصرارًا رغم مشاركة أسرتي للأطباء في إصرارهم ووقعت ورقة تُعفي المستشفى من أي عاقبة تصيبني.

شعور مذهل يعصف بي، أمشي بين أفراد أسرتي وأخي وزوجته كأنني أطير في الهواء ولا أسير على قدمي، بلغنا منزلنا والبهجة تغمرنا والضحكات تتعالى كأننا قادمون من حفلة.

ازدحم المنزل بنا والجيران والأقارب الذين جاءوا من الريف رغم مشقة الرحلة ولا أعلم كيف بلغهم الخبر، الأساتذة من مدرستي ومعارفي

وأصدقائي كلهم جاءوا رغم قلقهم من موضوع قراءة الأفكار، وكم شعرت بالبهجة والسرور من التغير الذي أصابني في هذا الأمر.

نعم، لا زلت أقرأ الأفكار والسلبية منها فقط لكنها لم تعد مسموعة، لم أعد أشعر بها تدوي في مخي، بل يمكن القول أنني أصبحت "أدركها" أو "استقرئها" أو "أشعر بها" لكن بوضوح يجعلني أفهم مضمونها كاملًا، هذا الأمر جعل الارتياح يغمر وجداني والسعادة تظهر جلية في ملامحي، وانغمست في الأحاديث مع زُواري مستمتعا بكل حرف وكلمة مما زاد زُوَّاري طمأنينة.

جالسًا في مقعدي المعتاد في واحتي مستمتعًا بخلوتي، وقد انصرف آخر الزُوَّار منذ ساعة وساد البيت الهدوء والسكون وذهبت زوجتي لإعداد طعام العشاء والأولاد في حجراتهم و..

- متى تتحرك؟

التفت إلى يميني وفوجئت برجل غريب يرتدي ثيابا ريفية ويضع عِمَّة وتبدو عليه الصرامة والهيبة، دُهشت.. متى جاء وكيف دخل منزلي وكيف لم يشعر به أحد.

- مـ.. من أنت؟

- وهل هذا يهم؟ لم يصدق (صابر) نفسه حين عرف أنك تراه، وفي كل مرة تراه فيها تملأ الدنيا صراخًا وعويلًا.

- (صابر) من؟ من أنت؟ كيـ.. كيف دخلت منزلي؟

- وهل هذا يهم؟ أقول لك (صابر) يحتاجك وأنت تسأل كيف دخلت منزلك، ألا تعرف (صابر)؟ (صابر) القتيل المظلوم الذي ذبحه ابن عمه، (صابر) الذي رأيته في القطار وجاء إلى بيتك حين عرف أنك تراه، عرفته أم لا؟

هنا بدأ الخوف يغزوني وأنا أحاول عدم فهم كلامه رغم وضوحه، لأن فهمه يثير الرعب في أوصالي وقلت :

- لماذا..لماذا لا يذهب إلى الشرطة؟

ضرب الرجل المنضدة التي تفصل بيننا بكفه وقال:

- يذهب إلى الشرطة؟ قتيل يذهب للإبلاغ عن قاتله! ماذا بك يا (عطيَّة)، هذا الأمر لا يستطيع سواك معرفة ما حدث فيه وكشف سِّره.

قلت وأنا ازدرد لعابي بصعوبة وأضع حاجزًا من عدم الفهم حول إدراكي:

- وماذا استطيع أن أفعل؟

تحدث بقوة:

- تستطيع، أنت رأيت (صابر) وهذا يعني أنك تستطيع مساعدته، لماذا قتله ابن عمه (سعيد)، لن يرتاح (صابر) حتى يأخذ ثأره ولن يأخذ ثأره حتى يعرف لماذا قتله ابن عمه.

نهض الرجل واستدار خارجا من باب الشرفة، وعيناي لا تفارقانه، بقيت في مقعدي مكبلًا بخوف وعجز لا أعلم مصدره.

فجأة زال شعور العجز ونهضت مسرعًا خلف الرجل وما أن عبرت باب الشرفة حتى وجدت زوجتي فسألتها بسرعة :

- أين ذهب الر.. العشاء؟

كلا، لن أعود بأسرتي مرة أخرى إلى دائرة الخوف والقلق، أنا أدرك الحقيقة وأعرفها، وأعلم أن الخوف هو ما يدفعني لإنكارها، منذ أدركت أنني أقرأ أفكار الناس، وهاجس يخبرني أن هناك أمرا يُعد، أمر سأكون نواته وقلبه النابض، أمر بدأ يتشكل ويأخذ ملامح معينة، مخيفة؟ نعم.. بل مرعبة وإحساس بأنني سأكون قادرا عليه، الرجل هل هو شبح أم جان؟ لا أعلم ولا يهم، لكنه حدث فعلا وليس توهمًا، جائني كيان - لا أعلم أهو شبح أو جان أو شيء آخر- لأجل القتيل (صابر)، لأجل العدالة والقصاص، خائف؟ ارتجف خوفًا، هل سأمضي في هذا الطريق؟ نعم، هل سأصل؟ لا أعلم، رغم يقيني بالنصر.

ابتسمت زوجتي وقالت:

- جئت كي أناديك.

*** * ***

أغلقت باب حجرة المكتب وأشرت لابنتي (خديجة) بالقعود على الكرسي أمام المكتب واتَّخذت مكاني قبالتها.

ابتسمت (خديجة) وقالت:

- ماذا هناك يا أبي؟ هل هناك سر تريد أن تخبرني به؟ أم هدية؟ أنها هدية منك احتفالًا بسلامتك، أليس كذلك؟

- مصروفك اليومي هو هدية يومية مني إليكِ، لو علم شقيقاك بمصروفك لأشعلا في البيت نارًا، واحتفالًا بسلامتي فأنا انتظر منكِ هدية وليس العكس.

زمت شفتيها وهزت رأسها وقد أدركت أنها أصبحت ملزمة بهدية لي.

- (خديجة)،ابنتي، تعلمين أنني أحبك؟

ابتسمت وقالت :

- وأنا أحبك يا أبي.

احتضنت كفيها بكفيّ وقلت:

- لكن هل استطيع أن اثق بكِ؟

أجابت بسرعة :

- بالتأكيد يا أبي، أنت تعلم أن أمر المصروف لا يعلم به سوى أنت وأنا.

- وأمك.

ردت بسرعة وهي تخرج كفيها من بين كفيّ وترفعهما إلى محاذاة كتفيها:

- لم أخبرها بشيء، إن علمت فقد علمت من مصدر آخر.

قلت لها مطمئنًا:

- المهم ما أخبرك به وما نفعله سيبقى سِّرًا بيننا حتى أقرَّر كشفه، موافقة؟

حركت يدها بحركة تمثيلية أمام شفتيها كأنها تغلقهما بمفتاح ثم تلقي المفتاح بعيدا.

قلت لها:

- سنبحث في الإنترنت عن جريمة بشعة حدثت في قطار، قام القاتل بقطع رأس القتيل..

صاحت (خديجة) فزعة من تخيل المشهد، الحقيقة أنني كنت أفضل ابني (أحمد) في هذا الأمر لأنه رجل في الخامسة عشرة من عمره ولكن خشيت أن يحب الأمر ويشغله عن دراسته، خاصة وهو يحب المغامرات، أما (خديجة) في السابعة عشرة من عمرها وهي أنثى رقيقة ولكنها أكثر نضجا وحكمة منه.

- أبي هذا.. هذا فظيع.

- نعم يا ابنتي والقاتل هرب من القصاص، لذلك أحاول مساعدة الشرطة في معرفة القاتل.

قالت مستغربة:

- وما شأنك به يا أبي؟

- أحد أقرباء القتيل صديقي ويظن أن قدرتي على قراءة الأفكار قد تساعد في معرفة القاتل، لذلك أرغب في معرفة ما قيل عن الجريمة قبل أن أحاول مساعدته.

بالتأكيد لن أخبرها عن شبح القتيل الذي زارني والكائن الآخر حتى لا تموت رعبًا وتفرَّ من البيت.

قالت متعجبة:

- هل لا زلت تملكها، ظننت أنها ذهبت!

قلت مراوغًا:

- لقد ذهبت ولكن القاتل لا يعلم، فلعل الخوف يدفعه لعمل يكشف أمره.

قالت والقلق في عينيها:

- ولكنك تعرض نفسك للخطر يا أبي!

قلت أطمئنها:

- لن يكون هناك خطر، الشرطة ومن حولي أهل القتيل يحمونني.

قالت:

- قد يكون القاتل من أهل القتيل.

- القاتل هو ابن عم القتيل واسمه (سعيد) ولكن لا أحد يعلم لماذا فعلها وكيف.

- حسنا.

قالتها ونهضت لتقعد على كرسيٍّ وراء المكتب وتبدأ تشغيل حاسوبي الخاص.

*** * ***

3

الجريمة

الجريمة واضحة.. القاتل معروف يقينًا.. ولكن من المستحيل أن يكون هو القاتل.. وإلا كيف فعلها؟.. كيف؟..



نعم أُجيد استخدام الحاسوب وتصفح الإنترنت ولكن في مجال عملي واهتماماتي، ولكن أشعر أحيانا أن الحاسوب والإنترنت لا يبوحا أسرارهم إلا للجيل الشاب فقط، ابني (أحمد) يبحث ويستخرج أشياء كنت أظن من المستحيل أن تتاح لعامة الناس، على الأقل بدون مقابل مالي.

آلية البحث التي استخدمها هي كتابة الكلمات المطلوب البحث عنها في محرك البحث ومن ثم استعراض النتائج، وهي الطريقة البسيطة الساذجة، في حين أن البحث غير المباشر أو البحث العلائقي هو أكثر ذكاءً وأفضل نتائج، ولكنه يحتاج مهارات كثيرة.

انهمكت ابنتي (خديجة) في البحث وانشغلت أنا في التفكير في هذه المسألة.

- إنَّها حادثة قديمة يا أبي، لقد حدثت منذ سبع سنوات.

أخرجني صوتها من أفكاري، التفت إليها وقلت:

- سبع سنوات؟ أمُتأكِّدة؟

هزت رأسها وهي تقول :

- نعم، لقد كانت جريمة بشعة.

وأخذت تقرأ ما أمامها على الشاشة :

- جريمة بشعة في القطار، قُتل المواطن (صابر) من قرية (..) بطريقة بشعة أثناء وجوده في مقصورة خاصة في قطار الساعة التاسعة القادم من مدينة (..) الساحلية، الجريمة حدثت في الساعة السابعة وأربعين دقيقة.

هنا توقفت هُنيهه ثم أكملت:

- التفاصيل المتبقية غير مهمة ولكن هناك تفاصيل أكثر في مجلة أسبوعية تتحدث عن نفس الجريمة وتقول إنَّ الشاهد قال إنَّ القتيل يعرف القاتل وأنه هتف باسم القاتل مسرورًا وهو (سعيد) قبل أن ينقض القاتل على القتيل ويقتله بطريقة بشعة ويختفي فجأة..

قاطعتها :

- يختفي فجأة! كيف؟

نظرت للشاشة تقرأ بصمت قبل أن تقول :

- لا أعلم، الشرطة وجدت إفادة الشاهد غير مفيدة بسبب مسألة الاختفاء هذه وأن المُشتبه فيه أثبت وجوده في مقهى القرية بين عشرات الشهود على بعد عشرات الكيلومترات من مكان حدوث الجريمة، وإنَّ القرابة والصداقة القوية التي تربط بين القتيل والمُتهم وغياب الدافع تجعل من الصعب أنْ يكون المُتهم هو القاتل.

- غياب الدافع!

همهمت بها وأنا أُفكر في مسألة الدافع لأوَّل مرة، كل جريمة تحتاج إلى دافع، ما هو الدافع وراء هذه الجريمة؟

و مسألة الاختفاء! كيف اختفى القاتل فجأة؟ سألت ابنتي:

- هل فسَّر الشاهد مسألة الاختفاء؟

قالت وهي تنظر إلي:

- هذه هي النقطة العجيبة في الأمر، الشاهد يقول إنَّ القاتل اختفى وهو ينظر إليه، كأنَّه تلاشى في الهواء وهذا ما أضعف شهادته كثيرًا.

سألتها وأنا أطْرُق مكتبي بأصابعي:

- هل هناك معلومات عن الشاهد؟ اسمه؟ عنوانه؟

انهمكت بعمل ما في الحاسوب ثم التفتت إليَّ تقول:

- اسمه (منصور) يعمل في شركة صناعة آثاث منزلي في (..) ويسكن في منطقة (..) من العاصمة، لا يوجد عنوان دقيق لعمله أو سكنه.

صرفت (خديجة) خاصة أن فترة القيلولة أوشكت على الإنتهاء وانهمكت في تفكير عميق.

****

فرغنا من صلاة العصر وقابلت أسرتي بوجهي من موضعي في الإمامة وانهمكنا في التسبيح، ما أن انتهينا حتى قالت زوجتي:

- اتصل الدكتور (مصطفى) وقال إنَّ نتائج الفحوص جاهزة وهو ينتظرك بعد الغد الساعة الخامسة تمامًا.

لم أكن راغبًا في زيارة الدكتور (مصطفى)، خصوصًا إنَّني في أفضل أحوالي النفسية والبدنية، ولكن الفضول لمعرفة نتائج الفحوص وتفسير ما أصابني جعلني أهتم بالأمر.

كنت قد عزمت على تجربة ما هذه الليلة، فما أن حلَّت الساعة السابعة حتى كان كل شيء معدًا، أغلقت باب حجرة المكتب بالمفتاح وقعدت خلف مكتبي، وتناولت قرصين من المهدئات وجلست انتظر.

مرّت ربع ساعة ولم يحدث شيء، يبدو أنَّ فكرتي كانت خاطئة، نظرت مرة أخرى لساعة الهاتف ورفعت رأسي لأجده أمامي على الكرسي المقابل ينظر إلي.

رغم إنَّني أعددت نفسي جيدًا لهذا الموقف فإن الخوف والمفاجأة هزا كياني هزًا.

كان هو (صابر) ولكن رأسه على عنقه، لم أنبس ببنت شفة هُنيهة ثم غالبت خوفي وتنحنحت قبل أن أقول:

- صابر..

من الصعب أن تتخيل إنَّ الجالس أمامك شبح لميت، وإنَّ ذلك الميت دُفن منذ سبع سنوات.

- ماذا فعلت ؟

قالها وهو ينظر إلي، قلت وصوتي تتقطع أوصاله:

- ص.ابر.. صابر.. هل أنت م. متأكد أن.. إنَّ قاتلك هو ابن ع. عمك.. (سعيد)..

نهض (صابر) أو شبحه في قوة وهو يقول :

- نعم هو (سعيد)، قد لا أعرف نفسي وأنا أنظر لها في المرآة ولكنني أعرف (سعيد) ولو كان بين ألف يشبهونه.

بدأت الطمأنينة تعود إليَّ وتماسك كياني وأنا أسأله:

- كيف؟

- كيف ماذا؟

صاح بها شبح (صابر) في قوة، فزعت ولكنني لملمت شتات نفسي بسرعة:

- كيف قتلك؟ في هذه اللحظة كان هو في المقهى في القرية مع أبناء قريتكم، كيف ركب القطار وقتلك وعاد في لمح البصر؟ مستحيل يا (صابر).. مستحيل.

- كيف؟ لا أعلم، ولكنه هو من قتلني ولا..

في هذه اللحظة وكأن سيفا خفيًا جزّ عنق (صابر) إلا قطعة صغيرة ليسقط رأسه على صدره.

رغم إنَّني رأيت هذا المشهد أكثر من مرة فإن نفسي لم تألفه، ودب الرعب في قلبي وانطلقت مني صرخة عالية كتمتها بيدي قبل أن تمتد.

في حين واصل شبح (صابر) حديثه كأن شيئًا لم يكن:

-.. أعرف كيف فعلها، و(سعيد) وأنا لا نذهب للمقهى أبدًا.

يبدو أن الأشباح لا تحتاج حنجرة وأحبال صوتية ورئتين للحديث، وقد استمعت له والفزع يقيّد أطرافي، مضت بُرهة وأنا على حالي و(صابر) ينظر إليَّ قبل أنْ يتلاشى.

دوت طرقات على الباب فنظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها الثامنة إلا ربعًا، فتحت الباب لأجد زوجتي وخلفها أبنائي ينظرون إليَّ في جزع، قلت والاستفهام في عينيّ:

- ماذا هناك؟

قالت زوجتي في قلق:

- لقد سمعتك (خديجة) تصرخ.

لابد من التمثيل، حاولت أنْ استحضر مواهبي فقلت في دهشة :

- أصرخ؟

تابعت وأنا أفتح الباب على متسعه في دعوة للدخول:

- هل سمعت صياحي أم صراخي؟

أنا لا أكذب ابدًا ولكن اللعب في الكلمات هو طريقتي لإخفاء ما أرغب في إخفاءه.

قالت (خديجة) وهي تدير بصرها في أرجاء المكتب:

- وهل هناك فرق؟

قلت:

- نعم، الصراخ للخوف والأذى والصياح قد يكون لشيء آخر، والمهم أنني وجدت شيئا فوجئت به.

لم أكن أعلم إنَّ أسرتي أصبحت مجموعة من المحققين، فعيونهم تقلِّب المكان بحثًا عن شيء ما، هنا قررت استعادة سُلطتي كرب أسرة وقلت بحزم وقوة:

- ماذا هناك؟

ارتفعت أصواتهم بكلمات تعبر عن قلقهم علي، قلت لهم وأنا أشير لهم بيسراي للخروج من مكتبي:

- لا يوجد ما تقلقون بشأنه، أنا مشغول في البحث عن أمر يهمني.

ساروا الواحد تلو الآخر نحو الباب للخروج، ولكنني أوقفت ابني (أحمد) قائلا:

- أنت انتظر.

أغلقت الباب وأشرت إلى حاسوبي على المكتب وقلت له :

- أريدك أنْ تبحث لي أن كان هناك طريقة لنقل إنسان أو شيء من مكان لآخر في لمح البصر.

قال وهو يقعد في كرسيّ خلف المكتب:

- لمح البصر؟ مثل نقل عرش ملكة سبأ (بلقيس)!

قلت مسرورًا وقد أعجبني قوله:

- تمامًا.

أخذ يبحث وهو يطلعني على ما يجده، وكل ما وجده هو نظريات علمية لم تتحقق أو وسائل نقل حديثة بعضها تحت التجريب، ولكنها جميعًا لم تقدم حلًا للمشكلة التي تشغلني، كيف انتقل (سعيد) من بلدته إلى مقصورة (صابر) في لمح البصر، هنا جاء الحل على لسان ابني (أحمد) وهو يقول:

- أبي، استمع إلى هذا، بوابات الدهر، هي بوابات يستخدمها السَحَرة للانتقال من مكان إلى آخر في لمح البصر..

السِحْر، كيف نسيت هذا؟ كل ما يحدث يشير بوضوح إلى السِحْر وإلى عوالم ما وراء الطبيعة، شبح (صابر) والشيخ الذي ظهر من العدم واختفى فيه، قدرتي على سماع الأفكار وما مر بها من تحولات، كل هذا يأخذني إلى عوالم مخيفة، عوالم يشغل السِحْر فيها موضعًا مميزًا، طوال الوقت وأنا

أفكر في حدود الواقع المحسوس والظاهر، وتجاهلت كل شيء وراءه، على الرغم من كل الدلائل والإشارات.

قطعت أفكاري وقلت بجدية:

- أخبرني عنها أكثر.

قال ابني (أحمد) وهو يواصل قراءة ما أمامه:

- لا يوجد أكثر من فكرة عامة، يحتاج الانتقال من مكان إلى آخر أن يحمل المُنتقل أثر من المكان الراغب في الذهاب إليه.

و التفت إليَّ وهو يسأل:

- ما هو الأثر؟

تجاهلت سؤاله وسألته:

- هل هذا كل شيء؟

هز رأسه بنعم، فكرت قليلا ثم قلت:

- ابحث عن كل شيء له علاقة ببوابات الدهر.

اُسْتُغْرق وقتا طويلا في البحث قبل أن يقول:

- لا توجد معلومات أكثر مما قلته، ولكن تفاصيل هذه البوابات موجودة في كتب تتحدث عن السِحْر.

هنا أقول إننا أسرة مسلمة، فخورة بإسلامها وحريصة عليه، لذلك تجد عالم السِحْر وكل ما يمت له بصلة مكروهًا ومبغوضًا من قبلنا، ولكنني الآن احتاج إلى فهم ما حدث، لذلك سألته:

- هل يمكنك الوصول إليها وتحميلها؟

أجابني وهو يتفحص ما على الشاشة :

- بعضها مجانية ويمكن تحميلها فورا ولكن البعض يحتاج إلى اشتراك أو شراء، خاصة كتب السِحْر الأسود.

التفت إليَّ وهو يسأل:

- أبي، لماذا تحتاج هذه الكتب؟

أجبته وأنا أفكر:

- لأنني اريد أن أعرف ماذا أصابني، هل هو سِحْر أم حسد أم شيء آخر، والأهم هو منع تكراره.

أتخذ وضعًا متحفزًا من الحاسوب وهو يسأل:

- هل تريد تحميلها كلها أم كتب معينة؟

قلت :

- كل ما له علاقة ببوابات الدهر أو عمليات الإنتقال.

خلال نصف ساعة كان قد أنهى تحميل سبعة كتب عن هذا الأمر.

شكرته وصرفته إلا أنه فرك يديه وهو يقول :

- أبي، الخدمات العظيمة تقود إلى مكاسب عظيمة.

فهمته وأخرجت هاتفي وفتحت برنامج الحاسبة وأنا أقول :

- بالتأكيد، وجبة إفطار الأُسْتاذ (أحمد) مع وجبة غداء، وبالتأكيد ماء الشرب والاغتسال ولا تنس الكهرباء وبهذا يكون المبلغ المُستحق على الأُسْتاذ (أحمد) هو...

و رفعت بصري إليه ولكن المكتب كان خاليًا من أي أثر له، هذا شعور جديد لم ألفه بعد، الرغبة في الانتقام والتخلص من إزعاج الناس مع قوة في بدني ترغبني في الصراع.

قبل حادثة الأفكار هذه كنت انظر للناس والأمور في تسامح شديد واتجاهل الاستفزاز والمستفزين بشكل شبه تام، لكن الآن!

هناك شيء ما تغير في نفسي، في بدني، في تفكيري منذ أنْ بدأت مسألة سماع الأفكار حتى وصلت إلى ما هو أشبه باستنباط دقيق للأفكار، هل انتهت مسألة سماع الأفكار أم ستعود؟ أم لا تزال هناك تغيرات أخرى ستصيبني مستقبلًا.

نظرت إلى ساعة الهاتف فوجدت موعد طعام العشاء قد اقترب، إذن الطعام فالصلاة ثم أسهر على قراءة هذه الكتب، الحمد لله إنَّني في إجازة.

*** * ***

تحدثت كتب السِحْر عن عشرات الطرق للانتقال من مكان لآخر في لمح البصر، من الدابة العمياء إلى طائر الظلمة إلى ناطور الخلاء إلى بوابة الدهر إلى غيرها، وجميعها تحتاج إلى تحضيرات صعبة جدًّا إن لم تكن مستحيلة، ومعظم ما ورد في كتب السِحْر من أمور يشترط في من يفعلها أنْ يكون قد بلغ من الكفر والرذيلة درجة تجعل إبليس ملاكًا، ومن الإجرام ما يسمح بقتل أي نفس بريئة بدم بارد.

حمدت الله على نعمة الإسلام وأيقنت من الحكمة العظيمة في قتل الساحر وعدم قبول توبته، إنَّ من يسير في هذا الطريق لا يبقى من إنسانيته شيء ولا تربطه بأقرب الناس إليه أدنى قدر من العاطفة.

هل استخدم (سعيد) السِحْر؟

هل فعلها (سعيد) أم شخص آخر؟

صابر يقول أنه (سعيد)، فهل هو صادق أم لا أم أنه يظن؟

الأشباح لا تكذب ولا تتوهم؟

ما أدراك؟

وهل بقي في زماننا شيء على صفاءه ونقاءه؟

فكيف تكون الأشباح استثناءً؟

بقي لصلاة الفجر نصف ساعة، أيقظُ الأهل ونصلي ثم أنام إلى الظهيرة، هذه من عطايا الإجازة.

* * *

ركنت سيارتي في بداية طريق ضيق أمام بناية قديمة خلف سيارة كبيرة في حي شعبي، الطريق على جانبيه بنايات كبيرة وقديمة، معظم البنايات تحوَّل الطابق الأرضي منها إلى متجر أو بقالة أو مقهى. الساعة الآن قبل الغروب بساعة، اتجهت إلى بناية أسفلها مقهى، هذا هو عنوان الشاهد (منصور)، وقد حصلت عليه من عملية بحث شاقة عن شركات الآثاث

المنزلي في (الفيسبوك)، والاتَّصال بها بحثا عن من يُسمى (منصور) لحاجتي إليه في كتابي الذي يتحدث عن أغرب الجرائم، حتى وجدت غايتي في الاتصال السادس.

دخلت المقهى المزدحم وتوجهت إلى أقرب نادل كي أسأله عن المدخل المؤدي إلى الشقق السكنية في البناية، وبعد أنْ أثبت أنه يصلح كمحقق شرطة في نظام قمعي محترم، أشار نحو مائدة جلس إليها خمسة رجال يتحدثون ويشربون الشَّاي، قال:

- البدلة البُنِّيِّة، السَّيِّد (منصور).

اتجهت إليه واستأذنته في الحديث على انفراد، نهض متوجسًا وجلسنا إلى منضدة خلت في التو، وطلبت القهوة التي أصرّ على أنَّ لا #داعيًا لها وأصررت على إنَّ هناك ألف داعٍ،و فورًا سألته عن الجريمة التي شاهدها.

- كان يومًا أسودَ يا أُسْتاذ، رأيت القاتل وهو يختفي والشرطة لم تصدقني واتهمتني بالتوهم، أنا لست مجنونًا يا أُسْتاذ ومتأكد إنَّه ظهر فجأة كما اختفى فجأة، لم يكن هناك أحد على باب المقصورة..

قاطعته قائلًا :

- رأيته وهو يظهر فجأة؟

رفع كفه اليمنى نافيًا وأجاب:

- لا يا أُسْتاذ ولكن أنا متأكد أنه لم يكن أحد هناك، سمعت باب المقصورة يُفتح فالتفت إليه..

قاطعته مرة أخرى بسؤالي:

- هل رأيت وجهه؟

أجاب بسرعة :

- لم أر وجهه مطلقًا، كان يعطيني ظهره، فتح باب المقصورة ورأيت القتيل في مقعده وهو يهتف مسرورًا باسم القاتل (سعيد)، وهنا رأيت سكين القاتل وهو يقطع عنق القتيل ورأس القتيل يسقط على صدره، صرخت من الخوف وفي نفس اللحظة اختفى القاتل كأنه ذاب في الهواء.

في هذه اللحظة جِيءَ بالقهوة ولكن لم تمتد أيدينا إليها و(منصور) يتابع بإنفعال:

- أقسم بالله إنَّ هذا ما حدث. الشرطة لم تصدقني والناس قالوا إنَّ الرعب هو ما جعلني اتخيل اختفاء القاتل. والله اختفى كما قلت لك يا أُسْتاذ.

أشرت إلى القهوة كي يتناولها وأنا أسأله:

- أثناء التحقيق، هل رأيت (سعيدًا) هذا؟

- نعم رأيته، كان واقفًا معي ننتظر دورنا في التحقيق في مركز الشرطة ولكنني لم أعرف إنّه (سعيد) المقصود إلّا فيما بعد، حين سألني المحقق إذا كنت رأيت فيه أي شيء من القاتل، فأجبته أن الهيئة الخارجية فقط تشبه هيئة القاتل.

فكرت في حديثه وأنا ارتشف قهوتي وضجيج الناس من حولي يمنعني من الغوص في أفكاري، سألته:

- سعيد هذا، كيف كان حاله في أثناء التحقيق؟

- يُقطِّع القلب، لا يتوقف عن البكاء وترديد اسم القتيل، من المستحيل أن يكون هو القاتل، ولكن لماذا أنت مهتم بالموضوع يا أُسْتاذ؟ هل أنت أحد أقرباء القتيل؟

أخبرته السبب نفسه الذي ذكرته وأنا أبحث عن عنوانه وشكرته على مساعدته لي، وتركت المكان ..

*** * ***

- أُسْتاذ (عطيَّة)، هل حدث شيء ما في حياتك قبل أنْ تصيبك حالة سماع الأفكار؟

كان هذا السؤال من الدكتور (مصطفى الغريب) وأنا وزوجتي جلوس معه في مكتبه.

قلت وأنا أبحث عن ذلك الشيء:

-لا، لا..

- نعم منذ ستة أشهر صار يتناول صنفًا واحدًا من الأكل في كل وجبة.

هذه المقاطعة من زوجتي وجعلت الدكتور (مصطفى) ينظر إليَّ مستفهمًا، فقلت:

- لقد تجاوزت الأربعين عامًا يا دكتور، وفي هذه الفترة تظهر أمراض الضغط والسكر، لذا أحاول الاهتمام بصحتي، ومزج الأطعمة المختلفة مضر

بالصحة، فوجدت إنَّ هذا سبيل لا بأس به بدلًا من التخلي عن بعض الأطعمة.

ضحك وقد عرفت أنه لم يفهم كلامي، ولكنه قال :

- أُسْتاذ (عطيَّة)، نسبة إلى عُمْرك، فأنت سليم ومعافى ولا يوجد مرض أو عيب.

زفرتا ارتياح انطلقتا وزادتا ابتسامة الدكتور الذي تابع:

- إلى هنا ينتهي الجانب البدني ويبدأ النفسي، هل ترغب في أنْ نبدأ؟

سألته :

- ماذا تعني؟

أجاب:

- أريد أنْ أعرف أحوالك التي تكون فيها قادرًا على قراءة الأفكار.

هنا أسرعت زوجتي وقالت:

- لم يعد يعاني منها، لقد شُفي منها تمامًا.

قلت وأنا أرجو أنْ يفهمني:

- لقد أقلقت هذه الحالة أسرتي بشكل مخيف، الحمد لله أنني شُفيت منها ولم أعد أعاني منها.

ظهر الارتياح على وجه زوجتي ولكن الدكتور فهم مغزى حديثي وقال:

- هذا أمر جيد، سوف نقوم ببعض الفحوص للتأكد أنها لن تعود، ولكن هذه الفحوص قد تستغرق وقتا طويلًا، لذلك أرى أنْ تعود زوجتك للفندق.

أصرّت زوجتي على البقاء وأصررت أنا على عودتها وخيّرها الدكتور بين عودتها للفندق أو الإنتظار في حجرة الاستقبال، فاختارت حجرة الاستقبال ممتعضة.

لماذا لم أخبره بقصة الأشباح؟ لأنني لا أريد أن أزيد الطِّين بلَّة، وقد أصبحت على يقين بأنني لست مجنونًا وأن ما يحدث يحدث فعلًا، ولكنني لا زلت لا أعرف ما هو دوري في هذا كله.

بعد ساعتين من الاختبارات نظر لي الدكتور (مصطفى) وقال:

- أُسْتاذ (عطيَّة) يمكن القول أنك تملك موهبة خاصة ولكن محدودة، أنت تقرأ الجانب السلبي من الأفكار، ربما لأنَّ الأفكار السلبية تؤثر في كيميائية الجسم بطريقة أشد وأقسى من الأفكار الإيجابية، وهذا يذكرنا بموضوع الكلاب الذي شرحته لك سابقًا، والتطور الذي حدث من سماع الأفكار إلى استقرائها بشكل دقيق، يجعل من المبكر أنْ نقول إنَّك في مرحلة الاستقرار، أو الشكل النهائي لحالتك.

سألته:

- وماذا بعد؟

- دعنا نؤجل الأمر إلى جلسة أخرى بعد شهر أو أكثر، أو إلى أن يحدث أمر يستوجب حضورك قبل ذلك.

سألته مترددًا :

- هل ترى أن أخبر أسرتي؟

- إنْ كنت ترى قلقهم أمرًا غير مهم.

و ضحك ومال نحوي وهو يقول:
- أُسْتاذ (عطيَّة) قدرتك ستثير رعب الناس، ولن يجدوا وسيلة لتكذيبك أفضل من اتَّهامك بالجنون، فما رأيك؟ تخبرهم بقدرتك أم تجعلها سرًا لا يعلمه سوانا؟
سؤال إجابته واضحة ولذلك قلت مراوغًا لزوجتي في قاعة الاستقبال في عيادة الدكتور ومتظاهرًا بالارتياح :
- الحمد لله، لقد ذهبت ولن تعود.
ما هي التي ذهبت ولن تعود؟ هه؟ ما هي؟ أنها الأيام الماضية.
الحمد لله أنني استخدم هذا الأسلوب للضرورة، يجنبني الكذب ولكن عند كشفه فسأبدو كمراوغ.

* * *

بلغت قرية (صابر) بعد ساعتين وقدت سيارتي في شوارعها الترابية بحذر ومتفاديًا الحفر والبط والدواب، وأتوقف بين الحين والآخر لأسأل أحد المارَّة عن بيت كبير القرية، ليس هناك أفضل من كبير القرية كي يخبرك عن أهلها، كان الوقت قبل الظهر والأولاد في المدرسة، لهذا لا تجد زفَّة كبيرة تحيط بسيارتي. مع انحناءة الشارع كنت بلغت غايتي.
كان كبير القرية جالسًا على أريكة طويلة تحت شجرة ظليلة أمام بيته المكوّن من طابق أرضيّ وحوله بعض رجال القرية على المقاعد،ومن

وراءهم حقول واسعة بعدها صف أشجار يحول بين الصحراء والقرية، كيف عرفته؟ كل شيء يدل عليه بدءًا من هيئته إلى نداء الرجال له بمقامه، ترجلت من سيارتي ونـهض الرجال لتحيَّتي، وبعد التحيَّة وكأس من الشَّاي في يدي تحدثت عن الأمر الذي جئت من أجله، حادثة مقتل (صابر).
لم يضف الرجال شيئًا على ما ذكر في الصحف سوى التأكيد على ستحالة أنْ يقتل (سعيد) ابن عمه (صابر) وتشَّعب الحديث عن العلاقة القوية التي تربط ابني العم وذِكْر المواقف والحوادث التي تظهر حب كل منـهما للآخر.
سألتهم:
- أين كان (سعيد) وقت وقوع الجريمة؟
قال أحدهم :
- كان في المقهى ولم يتركه سوى خمس دقائق، ذهب فيها إلى مِرْحَاض المقهى وعاد.
سألت لأتاكد من هذه الجُزْئيَّة:
- هل من عادته التردد على المقهى؟
أجاب الرجل نفسه:
- لا، وهذا الغريب في الأمر، كانت هذه هي المرة الوحيدة وكأنَّ الله يريد أن يثبت براءته من مقتل ابن عمه.
من الغريب إنَّ ما يبدو للناس دليلًا للنفي، يبدو لي دليلًا للإثبات، وعاودت الحديث بسؤال:
- وكيف كان حاله حينـها؟

قال الرجل:

- كنت حاضرًا ليلتها في المقهى وجذب انتباهي قدومه، كان هناك ما يشغل (سعيد) حين جاء المقهى، فقد جلس وحيدًا يشرب الشَّاي ويدخن النارجيلة ويفكِّر، وبعد أن سأل عن المِرْحَاض بصوت عال، ذهب وعاد مغمومًا متوترًا كأنَّه شعر بما أصاب ابن عمه حتى إنَّ القهوجي سأله إن كان بخير فقال إنّه مريض، ولبث قرابة ساعة حتى ساءت حالته، فقام بعض الرجال وأخذوه إلى بيته وهو يتكئ عليهم.

قال آخر :

- يقولون من تربطهم علاقة قوية ببعضهم؛ يشعرون بما أصاب أعزاءهم، وهذا ما شعر به (سعيد) حين مقتل (صابر).

سألت:

- و(سعيد)، كيف هو الآن؟

سكت الجميع وظهر الأسف على وجوههم قبل أن يقول كبير القرية:

- سعيد مات يا أُسْتاذ.

***   *   ***

دُهشت من قوله ورغبت في نفي كلامه لولا قول أحد الرجال:

- إنّه أشبه بجثة تمشي على قدمين، لا يهنأ بشيء من النعيم الذي أصابه بعد مقتل ابن عمه.

تساءلت والاستغراب في كلماتي:

- نعيم؟

هز كبير القرية رأسه والأسى في كلماته:

- سعيد و(صابر) كانا فقيرين، وبعد مقتل (صابر)، شغل (سعيد) نفسه بالعمل واجتهد وأصبح من أغنياء القرية، ولكنه لا يهنأ بالخير الذي أصابه، مقتل ابن عمه حرمه لذة الاستمتاع بما أنعم الله به عليه.

فكرت في كلامهم ولم أطل، وسألت:

- هل من أحد يأخذني إلى بيته؟

سكت الجميع حتى شعرت بأنني أخطأت السؤال، ولكن كبير القرية سألني:

- لم أنت مهتم بالموضوع يا أُسْتاذ؟

كررت حجتي بشأن تأليف كتاب عن الجرائم الغامضة، فلما فرغت من حديثي قال أحد الرجال:

- (سعيد) لا يستقبل أحدًا.

قلت مستفهمًا:

- تقصد غرباء عنه؟

قال آخر :

- لا أحد، أكان غريبًا أم من القرية.

هنا قال كبير القرية :

- سيأخذك (صالح) إليه ولا نعلم إذا سيقابلك أم لا.

* * *

كان حلم أبي أن يكون ابناؤه من المتعلمين وحاملي الشهادات، ولكن أخي (جابر) ترك المدرسة في الإعدادية واتجه للتجارة والزراعة رغم رفض والدي، أخي (جابر)، القرش في يديه يصير عشرة أضعاف، وقد أصاب من النجاح أضعاف ما ناله أبي، حتى إنَّه تخلى عند وفاة أبي عن نصيبه من بيت أبي لي، وتكفل بإدارة نصيبي من الأملاك التي ورثتها لنعيش أنا وأسرتي في بحبوبة من العيش، وأخرجتني من طبقة المعلمين الأقل من المتوسطة إلى طبقة قريبة من الثرية.

رغم هذا فإنني أشك إنَّ أخي (جابر) يستطيع بناء قصر مثل قصر (سعيد).

دارت هذه الخواطر في ذهني وأنا جالس في قاعة الضيوف الفخمة في قصر (سعيد)، أتامل الفخامة والثراء من حولي، القصر كأنه بُني من العاج الأبيض، وزخرفته باللون الذهبي، وكل شيء فيه ينم عن الذوق والفخامة والثراء.

دخلت امرأة تدفع عربة عليها أبريق الشَّاي وفطائر، وتصب لنا الشَّاي وتقدم لنا الفطائر،أخبرتنا إنَّ (سعيد) سيأتي بعد دقائق قليلة، هنا لفت انتباهي هذا الأمر، المرأة من الغجر، هذا واضح من ثيابها و الوشم أسفل شفتيها، والغجر قوم رُحّل لا يستقرون في مكان، ولا يعملون عند أحد، وأساليبهم في الاسترزاق غالبًا ما تكون ملتوية، وتعتمد على الرقص وقراءة الطالع وأشياء أخرى نُعيبها وهم يستحسوننها، لذلك وجودها في هذا القصر كان شاذًا وغريبًا.

أما مرافقي (صالح) فكان إنسانًا أقرب إلى السذاجة ومبهورًا بما يراه، وبين الفينة والأخرى يلكزني أو يهتف بي مشيرًا إلى ما خلب لبّه من الفخامة والثراء.

أُسْتُغْرقنا في ما حولنا من الفخامة، حتى دخل علينا رجل، رجل عرفت إنّه (سعيد)..

القاتل..

*** * ***

كان الداخل يلبس فاخر الثياب وثمينها ولكنها أشبه بالأشولة على جسده النحيل، ووجهه عظام يكسوها جلد، وعينان غائرتان في محجريهما، وشفتان مسْوّدة عطشى كأنها لم تشرب الماء يومًا.

إن كان هناك شك في كون (سعيد) هو القاتل، فإن هذا الشك صار يقينًا، نظرة الأثم في عينيه، والوجه المُثقل بالذنب يصرخان بأنَّه القاتل، ودخان أسود كثيف يخرج من ثيابه نحو وجهي ويوشك أن يُزهق أنفاسي، هذا الدخان الذي أدركت إنّه وكثافته يشيان بحالة صاحبه السيئة.

لم استفد من حديثي معه شيئًا، فقد رفض الحديث عن الأمر كله، لأنه يثير الأوجاع ويعيد الأحزان ورجاني أن أغفل هذه الجريمة من كتابي، الغريب أنني لم أستطع قراءة أفكاره، كان كتابًا مغلقًا.

في النهاية لم أجد بُدًا من الرحيل، فصحبني مع (صالح) إلى سيارتي المركونة إلى جانب بوابة قصره.

فتحت باب سيارتي و(صالح) يأخذ مقعده بجانبي، وهنا التفت إلى (سعيد) ونظرت في عينيه هُنيهة وسألته:

- كيف فعلتها؟

***   *   ***

4

السحْر..

ما هو السحْر؟ من أينَ يبدأ وإلى أين ينتهي؟ هل كلِ َما وراء واقعنا سحر أم أمرِ آخر؟



جالسًا في واحتي ارتشف الشَّاي وأفكر في الجريمة واسترجع وجه (سعيد) حين سؤالي، لم ينكر سؤالي ولم يغضب، نظر لي في وجوم فقط، ولم تفارقنا عيناه حتى غابت سيارتي عنه، اليقين بأنه هو القاتل يملأ وجداني..

.. ما إعراب ضحى..

ولكن كيف قام بالجريمة..

.. خطأ، خطأ أيها الفاشل..

ما الوسيلة التي استخدمها..

.. أيها الفاشل، عقابًا لك عشر عصي، افتح يدك..

و سلاح الجريمة، لقد رأيته ولم يذكره أحد، أين ذهب..

.... ممتازة يا (عبير)، أنت أفضل من هذا الفاشل..

هنا ناديت بعلو صوتي:

- معتصم.. معتصم... يا معتصم..

... فشلة، كلكم فشلة، العقاب هو مصيركم...

جائني ابني (معتصم) مستفسرًا :

- نعم يا أبي.

- قل لـ (خديجة) أن تهدأ قليلًا.

ابنتي (خديجة) لها أسلوب غريب في استذكار دروسها، فهي تتخيل نفسها مدرّسة فصل وأمامها التلاميذ، وهي تنهال عليهم أسئلة ومدحًا وقدحًا وتقريعًا وضربًا بالعصا، أسلوبها يجعل المدارس تبدو محلات جزارة.

.. من؟ من الطارق؟.. يا ربَّ السماء عليك بمن يُعيق المسيرة التعليمية الراشدة..آه يا عدو العلم.. قصير وأيضا اسمك (معتصم) ..
والسكين، يا ربِّ، كيف نسيت السكين؟..
.. يا للهول، اخفض صوتي؟ يا للهول، العلم يُضطهد في محرابه ..
أهو سكين؟ لا..
بل أهو أشبه بالسيف..
قطع أفكاري قدوم زوجتي لتأخذ مجلسها المعتاد معي.
- نحن هنا.
التفت إليها تاركًا أفكاري وقلت:
- وأجمل من هنا.
ابتسمت وقالت:
- سارح بعيد جدًا.
- أفكر في هذه الدنيا، كيف (معتصم) ؟
- ممتاز، أفضل من (أحمد) وينافس (خديجة) ولا تهرب من سؤالي، أين وصلت أفكارك؟
ضحكت وقلت:
- (زينب)، أفكاري حول حياتنا، هل عاد (أحمد)؟
- لا تهـ..
قاطعها صوت ابني (أحمد) وهو ينضم إلينا:
- لقد عاد الآن يا أبي الحبيب..

ذكرنا القط فجاء ينطُّ، صافحني وقبّل أمه على وجنتها قبل أن يضع كتبه أمامه على المائدة ويقعد.

خصَّني بالحديث:

- أبو صلاح والمهندس (عبد الغفار) سيأتون لزيارتك بعد المغرب.

سألت زوجتي:

- لماذا لم يهاتفانه؟

قال وهو يصب لنفسه كأسًا من إبريق الشَّاي من على المائدة:

- لقد وفَّرت عليهما تكلفة الاتصال.

قلت ببشاشة:

- أهلًا وسهلًا بهما.

*** * ***

غادر ضيفاي قبل آذان العشاء، وصلَّيت مع زوجتي وأبنائي صلاة العشاء معًا قبل تناول طعامنا، ومن ثم دخلت حجرة المكتب، بحثت كثيرا في شبكة المعلومات قبل أن أضع الحاسوب في حالة الإسبات، وشبكت أصابعي وجعلتهم متكأ لجبهتي، وأنا أفكِّر.

متى انغمست في هذا..

بل كيف انغمست فيه..

اتحدث إلى أشباح..

و أعرف بوابة الدهر وغيرها..

بل متى أصبحت محققًا أبحث في جرائم القتل أو أي نوع آخر ..

وأذهب هنا وهناك..

و أبحث وأسأل..

هذا ليس أنا..

أنا ناظر مدرسة، عملي هو أن أدير شؤون مدرستي..

ينتهي عملي بين الساعة الثانية عشرة ظهرا أو الواحدة..

و أعود لبيتي وأسرتي وأحيا حياة رتيبة هادئة..

فجأة أُصبح قارئ أفكار..

قدرة أوشكت أن تجعلني مجنونًا..

و لم تنفعني بشيء..

ذهبت إلى (سعيد) وكنت أظن إنَّني سأقرأ أفكاره أو استقرئها..

لكنني لم استطع..

بل يبدو أن هذه القدرة تلاشت..

لم أعد اسمع أو استقرئ شيئًا من أفكار من حولي..

ما تبقى منها هو شعور بالقوة والعافية تتدفقان في بدني..

و الآن؟..

ماذا بعد؟..

رفعت جبهتي عن متكأها..

لأجده أمامي..

تماما كما غادرته اليوم..

بثيابه وهيئته..

ينظر إليَّ بعينين لا تطرفان..

عينا (سعيد)..

***   *   ***

أمسكت حافة مكتبي بأصابعي رهبةً ومفاجأة من ظهوره وخرج صوتي مبحوحًا متحشرجًا:

- سعيد!

متى دخل مكتبي..

كيف لم أسمعه..

- نعم، (سعيد) يا أُسْتاذ (عطيَّة).

ابتلعت ريقي بمشقة والرهبة تكبِّلني وقلت :

- ك.. كيف دخلت؟

- لا يهم، المهم هو ماذا تريد؟

بدأت الرهبة تتركني وقلت وصوتي يسترد طبيعته :

- الحقيقة.

- أي حقيقة؟ وما شأنك بها؟ لم تبعث الأحزان؟

صاح بهذا بقوة وبغضب، فقلت بحدة وقد استعدت رباطة جأشي:

- شأني إنَّ (صابر) مات مظلومًا على يد أحب الناس في قلبه، (صابر) جاءني يسألني القصاص من قاتله.

بُهت (سعيد) وهو يقول :

- (صابر) جاءك؟.. كيف؟.. متى؟.. هل جننت؟

قلت وصوتي يضجُّ بالتحدي :

- لا، لم أجن، لقد رأيتك وأنت تقتل ابن عمك (صابر) في المقصورة في القطار، ولكنني لا أعرف كيف قتلته وأنت في قريتك وأين ذهب سلاح الجريمة؟

وجم (سعيد) ثم قال ببطء:

- رأيتني! ولماذا انتظرت سبع سنوات! بل كيف سألك القصاص وقد رأيت رأسه يسقط على صدره؟

هذا اعتراف صريح بأنَّه هو من قتل (صابر)، لم أرغب في شرح الأمر، في حين أخرجَ هو من جيب ثوبه الريفي شيئًا غرسه في كفِّه اليمنى وهو يتابع:

- لا يهم، لن أسمح لك أن تدمِّرني، لقد قُتل الأعزُّ، ولست أعزَّ منه.

و بدهشة رأيت الشيء المغروس في كفه اليمنى يستطيل حتى بدا كالسيف الصغير وضمه بقبضته، و.. انقضّ عليّ بقوة ويصوب ذلك الشيء نحوي..

نحو صدري..

بل نحو قلبي..

* * *

دفعتني الغريزة إلى الوراء مبتعدًا عن مدى يده، ومذهولًا رأيت ذلك الشيء يُنتزع من يده بعد أن حال المكتب دون تقدُّمه أكثر، و.. وينقضّ علي..

اندفاعتي القوية للوراء جعلت كرسيّ المكتبي ذا العجلات يميل بقوة للوراء لنسقط معًا، وبذهول أكبر رأيت ذلك الشيء ينحرف - كأنَّ هناك من يوجِّهه- ليواصل اندفاعه نحو صدري، مصرًا على قتلي..

إنَّ الموت مصر على ضمي إلى قوائمه..

و لكن..

هنا حدث شيء غريب..

الشيء صار كأنه دخان ومع اندفاعه تبعثر في الهواء..

تسمرت في مكان سقوطي، والذهول يعصف بي، من (سعيد) وظهوره ومحاولته قتلي وذلك الشيء الأشبه بالسيف وقدرته على تتبعي وتلاشيه.

طرقات قوية على الباب..

.. أبا أحمد.. أبا أحمد.. أبي.. أبا أحمد.. أبي.. أبي..

تحسست موضع قلبي لأتأكد من سلامته..

لقد نجوت..

الحمد لله، لقد نجوت..

لقد نجو..

نجوت!

نجوت من ماذا؟

من رجل هزيل!

رجل قادر على سحقه بكفي!

ماذا أصابني؟

متى كنت جبانًا؟ يرجف قلبي مع كل صيحة وأفرح كل حين بنجاتي..

طق..طق..أبا أحمد.. أبي.. عطية..أجبني يا أبا أحمد..

متى صرت ضعيفًا؟ أخشى القتال وابتعد عنه..

أهي حياة المدينة والحضر؟

أم حياتي الرتيبة الهادئة؟

كنت من أشجع شبان قريتي..

بل وأكثرهم قوة..

أنسيت حقول الذرة المظلمة في الليالي المعتمة وأنا أسقيها..

أنسيت طريق الجبل وأنا أمضي فيه وحيدًا إلى بيوت عماتي..

أنسيت عواء الذئاب ونباح الكلاب وحكايات الجان وأنا أحرس أرضنا في الليالي وقت الحصاد..

أنسيت مطاردة لصوص المواشي وصوت الرصاص وقسمًا لن يأخذوا خصلة شعر ولا وبر منها..

أنسيت.. أم نسيت.. أم نسيت..

أكسر الباب يا أحمد.. معا.. معا..

اندفع الغضب في عروقي واجتاح دماغي وملك كياني، وجدت نفسي أنهض بقوة و.. وهنا حدث ما سيكتبه التاريخ - تاريخي أنا على الأرجح - بأنه حتما حدث، هي الأولى وربما تكون الأخيرة ولكنها ستبقى خالدة في صفحات حياتي وذكرياتي..

وضعت يدي اليسرى مكتبي لتكون مرتكزًا، وكأفضل لاعب في الوثب العالي رفعت جسدي الضخم على يدي قافزًا فوق المكتب برشاقة وليونة تحسدني عليها الظِباء، وتندفع قدماي أمامي لتضربا (سعيد) في صدره وتُلقيا به نحو الأريكة البعيدة المقابلة للمكتب، بجوار الجزء الذي نبقيه خاليا من الأثاث كي يكون مُصلى لنا.

هل حدث الأمر بهذه الطريقة؟

حين أتذكره لا أراه بطريقة أخرى، كلا لم ينته المشهد، ركلته بقدمي ويدور جسدي وقد تركت يسراي سطح المكتب لاستقر على قدميّ أمام المكتب.

أتذكر نفسي بهذه الصورة ولا أحب سواها، أكانت حقيقة أم وهم صنعه خيالي، لا يهم، استدرت نحو (سعيد) ومحاولات زوجتي وأبنائي أن يكسروا الباب مستمرة.

شعور رائع بالقوة.. بالشباب.. إنَّ منظري في تلك اللحظة يليق بمشهد الفُتُوَّة في الأفلام، طويل وممتلئ وشارب ضخم وأصلع من أعلى الرأس، لن يجد مُخرجي الأفلام أفضل مني هيئة ولا أحسن أداءً.

بم.. بم.. أقوى.. أقوى..

المفاجأة كانت واضحة على (سعيد) وهو مُلقى على الأريكة، نظر إليَّ ثم التفت إلى يساري يصيح بقوة:

- (عوّاده)، أمسكيه.

نظرت إلى يساري لأجد الغجريَّة التي قدَّمت لنا الشَّاي في قصره، متى جاءت؟ كيف دخلت؟ وماذا ستفعل له؟

انقضت (عوّاده) على ولا أدري ماذا في استطاعتها أن تفعل؟ أنها أشبه بعصفور يهاجم صقرًا.

رفعت يدي اليسرى لأصد بها (عوّاده)، وهنا لا أدري ماذا حدث؟

ماذا أصابني؟

ما أن لمست يدي (عوّاده) حتى خارت قواي، كنت أشبه بجهاز أو آلة فُصلت عنها الكهرباء، وهن شديد سرى في جسمي كله، حتى إنني لا أستطيع شد ذراعيّ وليس رفعهن، فتهاوتا إلى جانبيّ.

هات المطرقة يا معتصم.. خديجة معًا..

نهض (سعيد) بسرعة وأمسك بذراعي اليمنى وهو يبحث حوله عن شيء ما و(عوّاده) تقول:

- مرآة.. نحتاج مرآة يا (سعيد)

رد (سعيد) :

- أي شيء يعكس صورتنا.

صاحت (عوّاده) :

- كلا، لنأخذه معنا نحتاج مرآة.

صوت مطرقة يحطم الباب..

و(سعيد) يتلفت حوله قبل أن يفلت ذراعي ويقول:

- لا تفلتيه.

دار حول المكتب يبحث في أدراجه، في حين بدأ الباب يتهاوى وصاحت (عوّاده) :

- هيا يا (سعيد) لن نستطيع أن نأخذه معنا.

صاح (سعيد) وهو يواصل البحث:



- كلا أنه يعرف كل شيء، سنأخذه معنا.

تهاوى الباب ليندفع (أحمد) و(خديجة) و(زينب) إلى الداخل، في نفس اللحظة دفعتني (عوّاده) بعيدا كما لو أنها تقذف كرة صغيرة، لتركض صارخة إلى النافذة الزجاجية المغلقة :

- النافذة يا (سعيد)، النافذة.

و بعيون لا تصدق ما تراه، رأى الجميع (عوّاده) وكأن كل ذرة من جسدها وثيابها تنجذب نحو النافذة وتتلاشى فيها كما لو أنَّ النافذة دُوَّامة تبتلعها.

الذهول عصف بأسرتي فتسمَّروا في أماكنهم وفي الوقت نفسه ركض (سعيد) نحو النافذة ليكرر ما حدث مع (عوّاده).

كنت منكفئًا على وجهي خائر القوة، لم أر شيئًا من هذا، واحتاجت أسرتي لحظات لينتزعوا أنفسهم من الذهول وتتعالى أصواتهم مع بكاء (معتصم) وهم يركضون إلي.

- بسم الله الرحمن الرحيم.

- يا الله.

- يا ربِّ.

- عطية.. عطية.

- أبي.. أبي

تعاونوا جميعا لاستلقي على ظهري ووضعت زوجتي رأسي في حجرها وهي تبكي وتهتف باسمي، و(خديجة) تقرأ آية الكرسي و(أحمد) يردد أذكار طرد الشياطين.

شيئا فشيئا بدأت استعيد قوتي وعافيتي وهنا قالت (خديجة) :

- سأتصل بالإسعاف و..

قاطعتها بقوة:

- كلا، أنا بخير.

قال (أحمد) برجاء :

- أبي، نريد أن نطمئن عليك.

قلت وأنا انهض:

- أنا بخير حال.

تعاونوا جميعا على مساعدتي، حتى (معتصم) كان يبكي ويساعدني، جلست على الأريكة، وزوجتي (زينب) تبكي وتقول:

- جان يا (عطيَّة) جان، ماذا أصابنا؟ عين ولم تصلِّ على النبي.

هززت رأسي نفيا بقوة وقلت:

- بل إنس يا (زينب)، بشر مثلنا ولكنهم مجرمون.

و مع بكاءها كانت تحكي ما شاهدته هي وفاتني، و(أحمد) و(خديجة) يؤكدان روايتها ويدققانها.

احتجنا نصف ساعة حتى هدأت مشاعرهم وذهب الرَوْع عنهم وعادت إليَّ عافيتي، وهنا سألت (خديجة) :

- أبي، لقد قلت إنَّهم بشر، هل تعرفهم؟

أخذت نفسا عميقا وأخرجته قويًا حارًا وأجبتها:

- أعرفهم وأعرف مساكنهم، ولكنَّ الوصول إليهم عسير.

قال (أحمد) بقوة:

- لنبلغ الشرطة وهي تتكفل بالأمر كله.

هززت رأسي بقنوط وقلت :

- سيكون لهم ألف شاهد يقرّون بأنَّهم كانوا معهم في تلك اللحظة.

كثر صَخَبهم وكل منهم يدلو بدلوه وكنت أحتاج الإنفراد بنفسي للتفكير والبحث في ما حدث.

- أحتاج للإنفراد بنفسي.

قالت (زينب) بجزع:

- بعد ما حدث؟ لا يمكن يا (عطيَّة).

قلت لها في حزم:

- لست صغيرًا يا (زينب)، وهل ستلازمينني في كل مكان؟ غير ممكن يا (زينب)، وسأحتاج دخول المِرْحَاض هل ستدخلين المِرْحَاض معي؟ ما حدث لن يتكرر، لقد أدركوا أنني علمت بأمرهم وسيفرون.

قالت (زينب) برجاء :

- دعني أبقى معك، سأنام على الأريكة.

قلت لها في ضيق:

- و(معتصم) يا (زينب)؟

قالت (خديجة) :

- سننام هنا في المكتب على الأرائك يا أبي.

قلت في قوة وحزم قاطع:

- لا، الجميع سينامون في أسرتهم، ولن أقبل مزيدًا من الكلام في هذا الأمر، هيا، كل إلى سريره.

وقفوا جميعًا وكل منهم يلثمني على خدي ويتمنى لي ليلة سعيدة ويسير نحو الباب.

قالت (زينب) وهي تمسك مقبض الباب لتغلقه خلفها:

- عطية، لا توصد الباب بالمفتاح.

قلت لها وأنا أسير إلى وراء المكتب :

- لن أفعل، وإن رغبت في ذلك فلن أجد لذلك سبيلًا، أنسيتِ إنكم حطمتم الباب!

- زينب.

ناديتها وقد أوشكت أن تغلق الباب تمامًا، فزادت انفراجته بسرعة وهي تقول :

- نعم يا (عطيَّة).

انحنيت لأعيد الكرسي الساقط أرضًا إلى وضعه الطبيعي، والتفت إليها وبابتسامة كبيرة على وجهي، قلت:

- لا تقلقي، وتذكري إننا..

ووضعت يدي في هيئة بندقية تتكىء على اليد الأخرى، عرفتها هي بسرعة وارتسمت على وجهها ابتسامة سرور.

*** * ***

انهمكت في البحث في شبكة المعلومات، محاولا معرفة ما حدث الليلة، وكم شعرت بحاجتي لـ (أحمد) و(خديجة)، هما يجيدان البحث أفضل مني، ولكن لا أرغب في إيقاظهم.

بحثت في أمر ذلك الشيء الذي أراد (سعيد) قتلي به، وفي أمر السكين، سلاح الجريمة، السلاح الذي غاب عن ذهني تمامًا.

لقد رأيته وهو يندفع نحوي ليقتلني، كما استرجعت المشهد البشع لقتل (صابر)، ما بدا سكينًا، هو في الحقيقة أشبه بالسيف، والغريب أنني رأيت ذلك السيف وكأن طرفه تلوَّى كالأفعى، وظننت ذلك وهمًا صنعه خوفي، ولكن الآن تبخَّر هذا الوهم.

شوكة القنفد أو شوكة المنايا، نبتة نادرة جدًّا ويعرفها قلة من البشر، نبته يحسبها من يراها قنفدًا، أُستخدمت في ارتكاب جرائم السَحَرة.

تُؤخذ منها شوكة، وتُغرس في كف القاتل فتشرب من دمائه وتكون جزءاً من جسده.

تنمو في ثوان معدودة متخذة هيئة رمح صغير، يكفي أن يمسكها بإحكام ويشير نحو من يريد قتله لتقوم هي بالمهمة، وللتخلص منها ينزعها من يده فتصير هباءً.

يمسكها بقوة.. لقد أفلتت من يد (سعيد) وواصلت اندفاعها نحوي، قوة اندفاعها نزعتها من يده فتلاشت.

يا إلهي، ما هذا؟

هل هذا حقيقي؟

هل يوجد في العالم، بل في الكون شيء كهذا؟

أكثر من تحدث عنها قال أنها خرافة، والبعض يقول إنَّها واحدة من أشياء نادرة بقيت من العالم القديم، عالم الحِنِّ والبِنِّ، عالم ما قبل آدم عليه السلام.

هل ما رأيته هو سيف صغير أم شوكة المنايا؟

يا ربِّ..

و اختفائهم في الـ..

- ليس سِحْرًا.

دوت هذه الجملة واضحة قوية في حجرة مكتبي، والتفت إلى مصدرها، لأجد ذات الرجل الذي جاءني من قبل يحثَّني على السعي في مساعدة شبح (صابر)، على الرغم من المفاجأة فإنّ خاطرًا غريبًا جال بذهني، لقد صارت حجرة مكتبي أكثر ازدحامًا من الشارع العام الرئيسي في وسط المدينة، يبدو أن الأشباح لا تجد سواي في هذا البلد لتأتي وتثرثر معه وكأنني لا

عمل لدي سوى الإستماع إليهم والسعي في مصالحهم وتحقيق ما فاتهم في هذه الدنيا، وهم يأتون ويدخلون بلا استئذان.

- ليس سِحْرًا!

قلتها بتمهل واستغراب.

اقترب من مكتبي وقعد على الكرسي أمامي.. غريب أمر هذه الأشباح المُتعبة، هل حياة الأشباح شاقة؟، أنهم يهيمون في هذا الكون الفسيح بلا روابط أو حدود.. يبدو إنَّ هيامهم مُتعِب!

قال:

- كنتُ في مكتبك حين فوجئت بهم يحاولون قتلك.

قلت له بغيظ:

- ولم تفعل شيئا!

- كنت أريد أن أعرف كيف علموا بهذه الأمور وظهوري كان سيفسد ذلك.

قلت بسخرية يطحنها الضيق:

- طبعا حياتي غير مهمة أمام الحقيقة السامية.

- لا، حياتك مهمة ولم أتدخل لأنَّني كنت واثقًا من قدرتي على إنقاذك في الوقت المناسب.

ثم نظر إليَّ ووهو يضع ذراعه على مكتبي ويقول:

- السِحْر يا أُسْتاذ (عطيَّة) لا يختلف عن أنْ تقوم بدفع مال إلى مجرم لحرق منزل شخص ما أو سرقة ماله أو إيذائه، فقط في عالم السِحْر أنت تقوم باستئجار جان أو شيطان، وهذا الجان والشيطان لن يقوم بخدمتك حتى

يُدرك أنَّك وصلت من الكفر والشرك مبلغًا انسلخت معه عن كل القِيَم والأخلاق، لذلك يحتاج السِحْر إلى تمائم كُفر وشرك وممارسات تبغضها النفوس النقيَّة وتأنف منها الفطرة السليمة ويحرِّمها دين الله، حين تفعل تلك الأشياء يُدرك الجان والشياطين إنَّك صرت كافرًا وعبدًا لشهواتك ولهم، هنا يسعون لخدمتك بقدر مصالحهم، فهم أهل خبث ومكر وخديعة، وقد يعبثون بك وينقلبون عليك، لذلك يحتاجون ساحرًا قويًا متمكنًا للسيطرة عليهم في حدود المنفعة المتبادلة بينهم وبين الساحر، أما ما رأيته فهو علم له أصوله وقواعده، عرفه العلماء وأدركه الناس، لكن مع الوقت مات العلماء وفُقدت أصوله وقواعده، ونسي الناس نشأته، علمٌ أخذ السَحَرة قدراته دون أسبابه وتفسيراته، وجعلوه جزءًا من أدواتهم، وأضافوا له الخرافات والتمائم والشرك وجعلوا له هيئة تختلف عن هيئته الأصلية، بل أحيانًا استبدلوا أجزاءً لا تخالف الفطرة منه بأشياء قذرة.

قلت في حذر:

- هل تعني إنَّ نبتة القنفد والظهور والاختفاء في المرآة ليس سِحْرًا؟

قال بتأكيد:

-نعم، نبتة القنفد هي نبتة من العالم القديم، تحتاج إلى البروتين كي تنموا سريعا وتأخذ طبيعتها من الذي يلمسها كما تأخذ الحرباء لون ما يحيط بها، وهي من خلق الله سبحانه وتعالى، السَحَرة غيَّروا ذلك، فجعلوها تُغرس في أجساد الأحياء لتأخذ البروتين من مصدر غير مألوف ومعتاد ولكن يليق بعالمهم المظلم، ومع الغرس يُولد الألم، الألم مع ما يجيش في

قلب من غُرست فيه من غضب وحقد، يجعلها تهاجم من يرغب من غُرست فيه في مهاجمته، لذلك تصير نوعًا آخر من النباتات آكلة اللحوم.

تساءلت والدهشة تعصف بي:

- وإذا كان نقي السريرة ستكون وادعة طيبة؟

هزَّ رأسه وأجاب:

- نعم، وإذا غُرست في الأرض وكان سمادها من البروتين من مصدر طبيعي كجيفة حيوان، فإنها تصبح نبتة زينة طريفة يتغير لونها حسب مشاعر من يلمسها لا أكثر.

قلت وقد صرت ملهوفا للمعرفة :

- والمرآة؟

قال وهو يتلفت حوله:

- هذه يطول شرحها، هل أجد عندك كأسًا من الشَّاي؟

شَّاي؟ غريب أمر هذا الشبح.. مثقف ومُتعب ويحب الشَّاي!

لابد أن أمامه سهرة طويلة، يبدأها معي وينهيها مع زملائه الأشباح.

كررت في دهشة:

- شَّاي؟!

قال مستغربا دهشتي:

- نعم، شَّاي.

قلت في حذر:

- و.. وهل.. تشربون الشَّاي.. هناك؟

نظر لي في استغراب أكبر وقال:

- هناك؟ هناك أين؟

قلت في حذر أشد:

- في.. في عالم.. الأشباح.

نظر إليَّ في دهشة هُنيهة قبل أن ينفجر ضاحكًا، وجسده يهتز بقوة وأُستغرق في الضحك حتى خارت قواه، وبدا هذا عجيبا مع هيئته الرصينة، ثم قال وضحكاته تمزَّق كلماته :

- من.. هه هه.. من تظنني؟.. هه.. هه.. شبح؟

قلت في دهشة:

- ألست كذلك؟

عاد يضحك بقوة أكبر وانتظرته حتى فرغ وقد وضع يده على بطنه من شدة ما ضحك وقال:

- أنا بشر حي مثلك يا أُسْتاذ (عطيَّة)، ما الذي أوحى لك بهذه الفكرة؟

قلت بسرعة :

- تظهر وتختفي كالأشباح، ولم تطرق الباب مرَّة، ولا أذكر إنني دعوتك أو فتحت لك الباب مرة.

عاد يضحك وفي هذه اللحظة رأيت باب المكتب ينفرج انفراجة صغيرة وعين تتلصص علينا منها..

عين كنت أعرفها..

و أعرف هيئة صاحبها..

* * *

- زينب.. تعالي.

ناديت بقوة ففُتح الباب على مُتسعه ودخلت (زينب) وهي تضع منديلا على رأسها في عجالة وتقول:

- نعم يا (أبا أحمد)؟

نظرت لها في لوم فردت عيناها بأن لا أنتظر منها أن تتركني وحيدا.

قلت لها :

- هل لنا في كأسين من الشَّاي؟

قالت مهللة وكأنَّني منحتها هدية ثمينة :

- يا سلام، دقيقة ويكون عندك.

و نظرت إلى الضيف في تساؤل واضح، ولكنني تجاهلت نظرتها وأشرت لها بالإنصراف بأطراف أصابعي.

خرجت وقد أبقت الباب مفتوحًا، فناديتها أنْ تغلق الباب، فعلت وأنا انظر لها بعتاب وهي تنظر لي مشاكسة.

كان الضيف يشغل نفسه بالنظر إلى الأرض، وقد أمسكت أصابع يده اليمنى مؤخرة أنفه، كأنه يدلكها أو يتأكد أنها موجوده، وقد عادت له رصانته.

قلت له مستكملًا حديثنا :

- والمرآة والظهور والاختفاء؟

قال وهو يضع ساقه فوق الأخرى:

- كل هذا من علوم العالم القديم.. الروايات كثيرة عن ذلك العالم، لا أحد يعلم متى كان هذا العالم، هل هو قبل خلق (آدم) عليه السلام أم بعده؟ بعض الروايات تُرجح أنَّه منذ (آدم) عليه السلام إلى عهد النبي (سليمان) عليه السلام، والبعض يقول إنَّه قبل عهد (آدم) عليه السلام، علوم العالم القديم تقول أنَّ الله خلق الكون وهذه الأرض في أفضل وأجمل تصميم، لا أقول لك أنه (تصميم ذكي)، تلك الكلمة الخبيثة التي تقرأها في الكتب والمقالات العلمية، ويُراد بها أن يُغرس في عقول الخلق إنَّ الكون من صُنع مخلوقات قد يكونوا بشرًا أو سواهم، بل أقول (خلقًا إلهيًا) يعجز عنه الخلق ولو اجتمعوا عليه، إنَّ الله لا يريد من عباده سوى أنْ يعبدوه.. أعود إلى ما تقوله تلك العلوم، وهو أنَّ العلم بخواص المادة والكون يؤدي لنتائج عظيمة لا تخطر على قلب بشر، ومنها طرق الانتقال والتنقُّل من مكان إلى آخر..

5

القصاص

القصاص حكم على القائم على بسط العدالة وتنفيذ إرادة اللّه على علم من المجتمع والناس، فهل يحق لنا القصاص من القاتل بأنفسنا.. حتى وإن علمنا يقينا أنه القاتل؟



لم انتظر وقاطعته:

- هل تعني إنَّ (سعيدًا) يستخدم هذه العلوم؟

- لا، رُبَّما وقع في يده شيء منها، طريقة (سعيد) تعتمد على خواص الضوء، وخواص طَيْف الإنسان، الضوء الذي لا يعرف البشر حتى الآن إلا القليل جدًّا من خواصه، وطيف الإنسان لا يعلمون عنه شيئا، باستثناء بعض السَحَرة الذين يعرفون بعض استخداماته كتقليد وليس علمًا، لقد قابلت (سعيدًا)؟ أليس كذلك؟

أجبته وأنا مُنْبهر بما أسمع:

- نعم، لقد ذهبت إلى بيته.

دلَّت حركة رأسه إنَّ قولي يوافق أفكاره وقال:

- لقد تركت آثارا كثيرة خلفك، وأهمها آثار طيفك، الطيف والضوء كافيان لمعرفة مكانك في أيِّ بقعة في الكون، والضوء والمغناطيسية وبعض أشياء أخرى قادرة على نقلهم إلى حيث تكون أنت، المرآة دورها هو تحفيز بعض خواص الضوء فقط، هل فهمت ما حدث؟

قلت في استغراب :

- وكيف بلغ (سعيد) كل..

قاطعني صوت طرقات على الباب، وأدركت إنَّها (زينب) وقد أحضرت الشَّاي، نهضت لأفتح الباب وأمسكت بصينيَّة الشَّاي منها ولكنها أبت أن تُفْلتها وقالت:

- من هذا؟ وكيف دخل بيتنا؟

قلت بسرعة :

- ضيف وأدخلته من الباب الآخر للمكتب.

نظرت إليَّ بشك وقالت:

- لم أترك بهو البيت لحظة ولم أرك تُدخل أحدًا حجرة الضيوف كي يصل للباب الآخر.

قلت لها في حزم:

- (زينب)، دعي عنك القلق واذهبي لتنامي.

بقيت ممسكة بصينيَّة الشَّاي بعناد ثم أفلتتها كارهة، أغلقت الباب وأنا ابتسم وقال الرجل :

- زوجتك قلقة عليك.

- ما نمرُّ به يجعلها قلقة.

وضعت صينيَّة الشَّاي على الطاولة الصغيرة بين الرجل والكرسي الآخر أمام المكتب، وناولته كأس الشَّاي الذي أخذه شاكرًا، وجلست قبالته على الكرسي الآخر.

قلت وأنا اتذكر أين توقفت:

- والآن، كيف عرف (سعيد) هذا العِلْم؟

أخذ رشفة طويلة من كأسه ثم نفى برأسه وقال:

- بالنسبة إلى (سعيد)، أنا على يقين بأنه يحسبه سِحْرًا وليس علمًا، ولا شك إنَّ كل شيء استخدمه تلوَّث بتمائم السِحْر وخزعبلاته.

وضعت مرفقي على حافة المكتب وأسندت رأسي إلى قبضتي وأنا أسأله:
- كيف؟
قال والتفكير على وجهه:
- مثلا طريقة الانتقال تحتاج عدة أشياء منها مصدر مناسب للضوء، أي مصدر مناسب يساعد في إجراء الانتقال، مثل مصباح الحجرة أو مصباح الهاتف، لكن في عالم السِحْر يمكنني القول أن مصدر الضوء يجب أن يكون شمعة صُنعت من دهن إنسان ويُقرأ عليها كلمات كُفْر وشِرْك، كما ترى الجزء الصحيح هو وجود الضوء، أما شرط أن تكون شمعة من دهن إنسان ويُقرأ عليها، فهذان هُرَاء، لكن الغرض منهما جَرُّ الإنسان إلى دائرة الكفر والجريمة واستعباده وضمان خضوعه، السؤال هنا من يُعلِّم (سعيد) هذه الأشياء؟
قلت وأنا أُستغرق في التفكير :
- همممم، لا أعلم، لابد أنه يعرف ساحِرًا.
هنا سطعت في رأسي فكرة جعلتني اعتدل وأهتف:
- (عوّاده).
سألتني عيناه عنها وقلت:
- إنّها الغجريَّة التي تعمل في قصر (سعيد)، وهي من جاءت معه الليلة.
- غجريَّة؟ هذا يفسِّر الكثير، الغجر يعملون في السِحْر، صحيح أن أكثر سِحْرهم قائم على الكذب وخداع البلهاء والسذج، ولكن هذا لا يمنع أن يكون فيهم من يجيد السِحْر الأسود.

قلت والحماس يشكّل هيئتي:
- لقد أمسكنا طرف الخيط، هي أو (سعيد) سيقودنا إلى الساحر و..
تركني الحماس فتهاويت وقلت بتراخي:
- و.. ثم ماذا بعد؟ ماذا يفيدنا معرفة الساحر؟ وإن عرفناه ماذا سنفعل معه؟
قال الرجل :
- دعك من السَاحِر الآن، لقد جئتك لمسألة (صابر)، لقد صار يقينًا لدينا إنَّ (سعيد) هو القاتل، ويجب علينا القصاص منه.
صحت مذعورًا:
- ماذا؟ من تقصد بـ (علينا) هذه؟
قال ووجهه يستنكر ذعري:
- أقصد أنا وأنت.
صحت والذعر يشدّني لأقف على قدميّ:
- ماذا؟ هذا أمر خاص بالشرطة، بالقضاء، بالجهات المختصة.
نهض بدوره ليقول ووجهه صارم وصوته حازم:
- لن يستطيعوا أن يثبتوا شيئًا وسيبقى (سعيد) حرًا طليقًا.
قلت:
- سنشهد أنا وأنت أنه اعترف بجريمته.
- الوقائع والشهود ستُكذِّبنا، وسينكر (سعيد) اعترافه.
بقوة وحسم قلت :
- لا، لن أفعل شيئًا كهذا.

نظر إليَّ محبطًا وأطال الصمت وأنا أبادله النظر ثم قال:

- سنؤجل هذا الأمر إلى وقت آخر، إلى حين أجد طريقة لتنفيذ القصاص.

قلت مؤكدًا قراري:

- بعيدًا عني.

لم يجبني وأدخل يده في ثوبه وأخرجها ممتلئة بأشياء لا أدري كنهها ومد يده بها إليَّ وهو يقول:

-خذ.

نظرت إلى تلك الأشياء مستغربا وقلت:

- ما هذه؟

قال وهو يضعها في يدي :

- إنَّها ستمنعني والآخرين من دخول بيتك، من يريد الدخول عليه أن يطرق الباب ويستأذن.

تأملتها في يدي، كانت أشبه بأحجار جرانيت خضراء سداسية الشكل وفي منتصفها نصف كرة حديدية وفي منتصف الكرة شيء لامع أشبه بالزمردة أو المرآة.

في حين تابع هو الحديث بالقول:

- ضعها على الجوانب الخمسة لبيتك من الخارج.

- الجوانب الخمسة؟

- الشمال والجنوب والشرق والغرب والأعلى.

كأن المرح قد أصابه فقال:

- ومع كل واحدة تضعها لابد أن تقفز في الهواء مرتين، وتضرب الأرض بقدمك اليسرى ثلاث مرات وأنت تصيح شورش.. يا شورش.. خذ الزبدة وهات البورش.

هنا لم يستطع الحفاظ على جديته أكثر فضحك وقال:

- هذه تعمل على تعطيل أهم خاصية من خواص الضوء التي تساعد على الانتقال إلى بيتك، لن يستطيع أحد الدخول إلا بطريقة تقليدية كالدخول من الباب أو أي منفذ آخر، سيصبح الانتقال المباشر باستخدام أي وسيلة تستخدم الضوء إلى داخل بيتك غير ممكن.

نظرت لتلك الأشياء مرة أخرى وقلت:

- هذه تفعل هذا؟

- هذه تفعل هذا..و الآن أوشك الفجر أنْ يبلُج، لذا سأغادر الآن.

قالها واتَّجه نحو النافذة وهنا صحت:

- تمهَّل، لم أعرف اسمك بعد.

نظر إليَّ بدهشة وكأنَّ هذا الأمر فاجأه ثم قال:

- عبد الكريم.

ثم قفز نحو النافذة..

و..

*   *   *

لا، لم يختف في النافذة، ولكن اصطدم بها، كان اصدامه بالنافذة قويًا حتى حسبت إنَّه كسرها، ليسقط بعدها على الأرض، وأخذ ينظر للنافذة في دهشة لا يعلم ماذا حدث، ثم أخرج من جيبه شيئًا، أخذ ينظر له بتمعن قبل أن يلتفت إليَّ ويقول في ضيق جاهد ليكتمه:

- هل وضعت هذه الأشياء في في أحد الأدراج أو حجبتها بقطعة بشيء ما يا أُسْتاذ (عطيَّة)؟!

انتبهت أنه يتحدث عن الأشياء التي لا زلت أمسكها في قبضتي، بسرعة وضعتها على المكتب، ووضعت عليها قماشة صغيرة استخدمها لتنظيف سطح المكتب من الغبار.

أعاد الكرّة ولكن هذه المرة تلاشى في المرآة، وكان المشهد مذهلًا وكما وصفته أسرتي، ولكن مشاهدته بأم عينك يختلف تمامًا عن سماعه.

خمس عشرة دقيقة حتى الآذان، إذن الوضوء وإيقاظ الأهل للصلاة فالصلاة والنوم للظهيرة.

خرجت من حجرة المكتب لأجد (زينب) تغالب النوم على الأريكة في البهو.. هذه المرأة عنيدة.

لما رأتني نهضت وبشَّت، قلت لها أنْ توقظ الأولاد للصلاة وأنني ساستخدم حمَّام حجرة الضيوف ليُتاح لها حمَّام حجرة النوم.

- والضيف؟

سألتني على حين غفلة مني فقلت :

- ماذا عنه؟

- هل سيصلِّي معنا؟

- لا، لقد غادر.

- غادر؟ متى؟ وكيف؟

سألتني بدهشة كبيرة، فقلت :

- وأنت تغالبين النوم.

نظرت إليَّ بشكٍّ ثم قررت ترك الأمر ودخلت حجرة (معتصم) لتوقظه..

***   *   ***

استيقظت وقت الظهيرة، ولبثت في فراشي أفكر في كل ما مر بي، حتى وصلت إلى (عبد الكريم) وموضوع القصاص، هل يمكننا إنجاز أمر ليس من حقنا؟

و (عبد الكريم).. لقد فاتني الكثير منه.. من هو.. وكيف عرفني.. وكيف يعلم ما يعلمه.. وإلى أي..

قطع أفكاري رنين هاتفي، أمسكته ونظرت إلى رقم المُتصل على شاشته، كان رقمًا لا أعرفه وغير مُسجَّل في هاتفي..

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

-..

- الحمد لله.

-..

- (عبدالكريم)!، أهذا رقمك؟

-..

-لا، بعد العصر لا يناسبني، بعد العشاء أفضل.

-..

- الساعة العاشرة أفضل، يكون الجو هادئًا ونتحدث دون أنْ يقاطعنا أحد.

-..

- وعليكم السلام.

هذا مناسب تمامًا، المهم أن لا أنسى سؤاله عن ما أرغب في معرفته منه.

أضفت اسمه ورقم هاتفه إلى قائمة الاتصال، ونظرت إلى ساعة الهاتف، آذان الظهر قد اقترب والأولاد لا شك في الطريق إلى البيت.

نهضت وتوضأت استعدادًا، وخرجت إلى الصالة وقد بلغ مسامعي صوت (زينب) و(أم عادل) التي تأتي ثلاثة أيام في الأسبوع لتساعد (زينب) في شؤون البيت.

هل أتناول كأسًا من الشَّاي؟ لم يبق الكثير من الوقت إلى الغداء، كأس من الشَّاي لن يفسد شهيتي وناديت وأنا أسير إلى مكتبي.

- (زينب)، شَّاي، أطال الله عمرك.

كان أوَّل شيء لاحظته في حجرة مكتبي هو اختفاء الأشياء التي أعطاني أيَّاها (عبد الكريم) من على سطح المكتب، أسرعت إلى المكتب في نفس اللحظة التي فُتح فيها باب حجرة المكتب، التفت لأجد (زينب) تدخل حاملة صينيّة، عليها إبريق شَّاي وكأسان.

قلت مدهوشًا من سرعة إعداد الشَّاي:

- هل أعددت الشَّاي بهذه السرعة؟

ضحكت وقالت:

- قلبي دليلي، لذلك أعددته قبل أن تطلبه.

بمكر سألتها:

- حقا؟

قالت وهي تضع الصينيَّة بما عليها على المنضدة التي تتوسط الأرائك أمام المكتب:

- حقا،لقد دخلت حجرة النوم لأيقظك، فوجدتك في الحمَّام، وأيقنت أنك سترغب في الشَّاي.

قلت مشاكسًا:

-آآه، إذن ليس لـ (قلبي دليلي) شأن.

ضحكت وهي تسكب الشَّاي في القدحين، تحدثنا وهي مُصِرَّة على أنْ تعرف مَنْ الرجل الذي كان بصحبتي بالأمس وأخبرتها بالذي أعرفه عنه وهو إنَّ اسمه (عبد الكريم).

-(عبد الكريم) فقط.

- نعم يا (زينب)، هذا ما أعرفه عنه حتى الآن.

و أخذت تلف وتدور حول الموضوع وأنا أكرر ما قلته حتى أصابها اليأس ثم سألتني عن الأشياء، الأشياء المفقودة من سطح المكتب وسألتها:

- رأيتها؟ أين هي؟

- وضعتها في درج المكتب بعد أن أخبرتني (أم عادل) عنها حين نظفت المكتب.
مالت نحوي وبفضول شديد سألتني:
- ما هذه الأشياء يا (عطيَّة)؟
- قطع زينة خارجية، تُوضع على جوانب البيت من الخارج.
أغمضت عينها اليمنى وأشْخصت باليسرى نحوي وقالت:
- عليَّ يا (عطيَّة) ؟
قلدتها وأنا أقول :
- عليكِ يا (زينوبة).
في هذه اللحظة دخل (معتصم) عائدًا من المدرسة لينقذني من فضول (زينب)، صافحني وقبّل أمه وقعد في جواري بعد أن وضع حقيبته بجانبه، وما هي إلا دقائق حتى جاءت (خديجة) وبعدها (أحمد).
دار الحديث عن الدراسة والمدرسة وهم يحدثوننا عن يومهم الدراسي، حتى أوقفت (زينب) الكلام بقولها:
- الآن هيا، تسليم الهواتف، وعشر دقائق لتغيير الملابس والوضوء، ثم المجيء هنا للصلاة وبعدها الغداء، هيا بسرعة، من يتأخر سنأكل حصته.
أخرج كل منهم هاتفه ووضعه على المائدة، واندفعوا مسرعين لحجراتهم وهم يشكون من ضيق الوقت والنظام الاستبدادي الذي يدير البيت، و(خديجة) تشجع أخييها على الثورة.
نهضت (زينب) وهي تقول :

- سأعد مائدة الغداء إلى أنْ تأتوا إلى الصلاة.

نهضت معها وأنا أحرك يدي حركة دائرية على بطني وقلت:

- سأساعدك.

رفعت (زينب) يدها في إشارة تحذير واضحة وقالت :

- يُمنع الأكل أو التذوق أو الفحص أو النظر حتى وقت الغداء.

- وماذا عن الشم؟

- مُرغمًا فقط.

- هذا ظلم، يبدو أن (خديجة) ستجد لها أنصارًا في ثورتها.

*** * ***

- هل تعلم يا أبي إنَّ عمالة الأطفال جريمة يعاقب عليها القانون في الدول المتقدمة؟

كانت هذه من ابني (أحمد) وهو يقف على السُّلَّم الخشبي ويثقب بالمثقاب الكهربائي في الحائط مكانًا للقطعة الرابعة - من الأشياء التي أعطاني إياها (عبد الكريم)- في الجهة الشمالية من منزلنا.

كنا بدأنا العمل بعد صلاة العصر مباشرة، وقد انقضت ساعة منذ بدأنا، ولا ريب أنَّ الأُسْتاذ (أحمد) قد شعر بالملل في هذه السُّويعة، لذلك قلت له:

- أظن سن الطفولة حتى اثني عشر عامًا وليست خمسة عشر عامًا، أي أنك خرجت منها منذ ثلاث سنوات، والحمد لله أن هذا الأمر لا يسري عندنا.

قال بعناد وهو يُنهي الحفر :

- بل يسري ولكنك لا تلتزم به.

مددت يدي له بالقطعة الرابعة وأنا أقول:

- حين أجد من وضع هذا القانون على بابي كل يوم، ويعطيني إفطارًا وغداءً وعشاءً وأجرة سكن الأُسْتاذ (أحمد)، بالإضافة إلى مصروفه الخاص، تأكد تمامًا إنَّني سأكون حريصًا على أنْ لا يضع الأُسْتاذ (أحمد) يده في شيء.

نزل درجتين من السُّلَّم ليتناول القطعة الرابعة من يدي، ويرجع مكانه ليثبتها، وانهمكنا في هذا الحوار، الذي يريد منه الأُسْتاذ (أحمد) أن يجلس منعَّمًا ومرفَّهًا، ونقوم نحن على خدمته لأنه خُلق ليكون سَّيدّا مطاعًا.

أنهى عمله ونزل من على السُّلَّم، صفعته برفق على قفاه وأنا أقول:

- أضف هذه إلى حساب المظالم.

قبّلني على خدي وهو يمسك السُّلَّم الخشبي بيده اليسرى وهو يقول:

- حسابك ثقيل جدًّا يا حاج (عطيَّة).

أخذت المثقاب الكهربائي من حزامه وتناولت السُّلَّم وقلت له أنني سأضع القطعة الخامسة بمعرفتي، أصرَّ على معاونتي ولكنني رفضتها لأنه يجد فيها فرارًا من دراسته.

حرصت على أن تبدو القطع وكأنها جزء من زخرفة المنزل الخارجية حتى لا تفتح بابًا للتساؤلات، وهي قطع صغيرة لا تلفت النظر لولا الجزء العاكس في منتصفها، وجميعها متساوية الأقطار ولا يزيد القُطر عن ربع شبر.

حملت أدواتي وصعدت إلى الطابق الثاني، كان الطابق الثاني مجرد صور حجري بُني ثلثه الأسفل ويبدو امتدادًا للجدران الخارجية لمنزلي، وفي الركن الشمالي الغربي توجد عريش من سعف النخيل، نستخدمها في الصيف، وهي مع قن الدجاج والبط خلف البيت يذكرانني بأيام قريتي الجميلة.

لم أجد مكانًا مناسبًا لوضع القطعة الخامسة، وبعد تفكير قررت تثبيتها على سطح العريشة من الخارج على طرف العمود الأفقي الذي يحمل سقف العريش وينصَّفه.

* * *

جالسًا في واحتي بعد أنْ فرغت، و(زينب) أمامي ترتشف الشَّاي بالنعناع وقد امتلأ الهواء برائحته الطيبة، كانت تنظر إليَّ وقد ضاقت عينها اليمنى واتسعت اليسرى وأخذت ترتشف الشَّاي ببطء شديد، قلت وأنا أفعل مثلها:

- خير يا سيادة المحقق (زينب)؟

قالت بعد رشفة طويلة لم تطرف خلالها عيناها وهي تنظر إلي:

- إنني أرى أمورًا من حولي لا أعلم لها تفسيرًا.

.. المجال المغناطيسي.. من الذكي الذي يعلم..

قلت لها في براءة:

- مثل؟

.. خطأ.. خطأ أيها الكسول.. يدك.. يدك بسرعة.. ألف عصا..

دون أن تغير من هيئتها، صاحت:

- (معتصم).. (معتصم).. قل لـ (خديجة) أنْ تهدأ.

ثم قالت لي بهدوء :

- أُناس يدخلون بيتنا من غير أنْ نراهم، ويهربون (في النافذة) كأنهم سَحَرة، ضيف يأتي ويخرج دون أنْ نعرفه أو نعرف كيف دخل أو خرج، أشياء لا أعلم ما هي تُعلَّق على جدران المنزل، كل هذا وأنا صامتة انتظر منك تفسيرًا.

وضعت كأس الشَّاي على المائدة وقلت:

- كل ما استطيع أنْ أخبرك إيَّاه الآن هو أنَّ هذه الأشياء ستمنع الدخول إلى البيت بطُرق غريبة، والضيف يفسِّر لي الأمور الغامضة، وعسى الليلة أن يفسِّر لي كل شيء.

تنبَّهت وقالت:

- سيأتي الليلة؟

- نعم.

- وتلك الأشياء، هل هي تمائم؟، (عطيَّة).. أنت تعلم أن هذا شرك بالله.

- أعوذ بالله يا (زينب)، أنت تعرفينني يا (زينب)، لو كانت شركًا، هل كنت سأقبل بوضعها في بيتي.

دار بيننا حديث حامي الوطيس حول هذه الجزئية حتى أوقفنا آذان المغرب.

* * *



- اسمي (عبد الكريم..) تاجر معروف، اسكن معك في نفس المدينة، حصلت على شهادتي الجامعية في الكيمياء ولم أعمل بها، ورثت تجارة أبي الذي توفي منذ خمس سنوات، ولي متاجر في أكثر المحافظات، متزوج ولي ابن وابنة والثالث - بمشيئة الله تعالى - في الطريق، ما أعرفه من الأشياء التي أخبرتك بها، علمته من أبي ومن مكتبته القديمة الضخمة، فأثار دهشتي وأحببت كل ما علمته منه، حتى أنَّه خشي أن أُهْمل تجارته ولكنني لم أفعل، أه.. لي شقيقة متزوجة تسكن في محافظة من محافظات الجنوب، هه.. ماذا تريد أن تعرف أكثر؟

استمعت إلى (عبد الكريم) بانتباه وهو يخبرني عن نفسه،ونحن جلوس على الأرائك في مكتبي، وقد جاء في الموعد المحدد تمامًا، فقلت ردًا على سؤاله:

- كيف عرفتني أو لماذا جئتني بالذات؟

- رأيتك في مكانين، الأول عند الفاكِهانيِّ، وكنت تخبر البائع بأنَّه وزن لك فاكهة قديمة مع طازجة وهو ينكر، كنت أعلم أنه فعل ذلك لأنَّني رأيته، ولكن العجيب كيف رأيته أنت! لقد كنت تقف في الجنب الآخر ولم يكن في استطاعتك رؤيته.

مال نحوي والفضول في كل شيء من هيئته وسألني:

- كيف عرفت؟

كنت أرغب في المراوغة ولكنني صارحته بالحقيقة وما حدث معي في الفترة السابقة.

قال وهو يتعجَّب من حكايتي:

- اختفت؟ هل أنت متأكد؟

أكدت حديثي بحركة رأسي وقولي:

- تمامًا، منذ أيام لم تأتني مطلقًا.

ساد الصمت بيننا وقد اُسْتُغْرق في التفكير قبل أن يقول :

- لعلها إشراقة؟

نظرت له في استفهام من غير كلام، فقال موضحًا:

- أنت تعلم، الحالة التي يمر بها كثير من الناس، حين يجد الأمور الغامضة أو صعبة الفهم، وقد أصبحت واضحة أو سهلة الفهم قبل أن يعودوا لحالتهم السابقة، ولكن حالتك أكثر غرابة.

قالت هيئتي إنَّ ما يقوله جائز، وسألته:

- والثانية؟

استفهم بعينيه ثم أدرك عما أتحدث فقال:

- حين كنت أنت تصرخ أمام المقصورة التي قُتل فيها (صابر) في القطار، لقد علمت في ذلك الحين أن شيئًا ما بك، لذلك حرصت على أنْ أصِل إليك.

سألته:

- وما الذي جعلك تظن أنَّ بي شيء ما؟

- لأنني كنت من الذين جاءوا على صراخك، ورأيت ما لم يره سوانا من الناس، جثة (صابر) وهي مقطوعة الرأس،

هنا علمت أن شيئًا ما يجعلك مختلفًا عن الناس، وبعد أنَّ أخبرتني بموضوع قراءة الأفكار، أصبحت متأكدًا من ذلك.

- وكيف تتبَّعتني إلى بيتي؟

أخرج من جيبه كتلة غريبة من عدة أشياء، نزع منها شيء ما ووضعه بالقرب من وجهي وهو يقول :

- بواسطة هذا.

كان ذلك الشيء شعر ناعم، وفهمت المقصود وقلت :

- أخذت أثرًا مني.

وافقني برأسه وقال:

- في العادة ليست كافية، لكن هناك شيء فيك، جعلك تبدو واضحا في مرآة المرصود كأنني أشاهدك صورًا على هاتفي.

مددت يدي لأخذها ولكنه ارجع يده وأعاد وضعها في الكتلة الغريبة وهو يقول:

- سأحتفظ بها حتى استطيع الوصول إليك أينما كنت.

شعرت بالضيق لأنه اعتداء على خصوصياتي وقلت:

- لا يحق لك هذا.

قال مُدركا ضيقي:

- لا تقلق، منذ أنْ وضعت مشتتات الضوء، فلن يستطيع أحد مراقبتك في بيتك أو الانتقال داخله.

لم ينجح في إزالة ضيقي وقلت:

- وخارجه؟

- بالتأكيد أستطيع رؤيتك والوصول إليك، وإنْ لم ترغب في ذلك، فتأكد من خلو المكان من المرايا أو أي سطح عاكس، أو أنَّ الضوء لا ينفذ منه شيء -ولو بسيط- خارج المكان الذي أنت فيه، أُسْتاذ (عطيَّة)،من هو في موضعنا يجب أن يكون على مستوى عالٍ من الإلتزام الديني والأخلاقي، ولم أجْرؤ على دخول بيتك والحديث إليك إلا بعد أن أدركت إلتزامك وعائلتك بالدين والأخلاق، ولعل هذين هما سبب مشيئة الله في اختيارك، والله أعلم.

قلت والدهشة تملأني:

- اختياري؟ اختياري لماذا؟

- أُسْتاذ (عطيَّة)،نحن نحمل علمًا وفي أعناقنا أمانة، أمانة أن يصل هذا العلم إلى من يستحقه ويعمل به، فكما رأيت بنفسك، البعض يستخدمه لما فيه الخير والبعض الآخر في نقيضه.

قلت والضيق أنْ خفت فإنه لم يزل:

- والأشباح؟ هل سيمنعها؟

قال دهشًا ومستغربًا:

- أشباح؟

لم أجد مناصًا من إخباره بشبح (صابر) في المطبخ، وحديثي معه في حجرة المكتب، وهو غير مصدق.

عمّ الصمت المكان بعد حديثي، و(عبد الكريم) يتفكَّر في كلامي، ثم قال:

- لم يخب ظنِّي فيك، هناك شيء ما يميزك، الأشباح تحوم حول المكان الذي أُزهقت فيه روحها ولا تتركه، أما أنت فهي تتبعك، هذا أفضل، بالتأكيد أفضل بكثير.

قلت مستغربًا:

- أفضل ؟أفضل لماذا؟

- لأن يجعل القصاص من (سعيد) أسهل.

قلت محتدًا:

- لن نعود لهذا الأمر مرة أخرى، ولم تخبرني كيف تعرف أنت (صابر)؟

قال وهو يضع ساقًا فوق الأخرى :

- كما أخبرتك لقد كنت أراه كما كنت تراه في تلك الليلة في مقصورة القطار، ثم أنني دفعت مبلغا كبيرًا لاستأجر ذات المقصورة في نفس الوقت لليلتين متتاليتين، لأنني أعلم أنَّ الأشباح تكرر نفسها في نفس المكان ونفس الموعد، لم يحضر في الليلة الأولى، وحضر الثانية، وتحدَّثنا.

بالتأكيد لم يحضر الليلة التالية، لقد كان في المطبخ يُفزعني ويتسبب في غيبوبتي ونقلي إلى المستشفى، هنا خطر لي خاطر نقلته إلى لساني:

- مهلًا، (سعيد) لم يمت، فكيف نرى شبحه؟

- ليس شبحا، بل قرين الحقد.

مع كل حين تظهر معلومة جديدة، تثير دهشتي وهلعي، ولا أنكر أن لها نكهة رائعة، نكهة المعرفة.

قلت متعجبًا:

- قرين الحقد؟ ما هو؟

زفر (عبد الكريم) كأنه ينفث حممًا، وهو يفكر في ما ينطق به قال:

- حين يخوض الإنسان تجربة تترك أثرًا عميقًا في نفسه، كأن يقتل كما فعل (سعيد)، فإنه يترك جزءً من كيانه غير المادي في ذلك المكان، مقدار هذا الجزء يعتمد على مقدار ما تركته التجربة في نفس صاحبها، هنا يأتي قرين الشعور، ما هو؟ يقال إنَّ كل شعور في المخلوق له قرين يمثله، السعادة لها قرين والغضب له قرين، والقرين يحب تقليد السلوك الذي يفعله المخلوق ويولّد شعورًا في المخلوق يوافق طبيعة القرين، ويكرر القرين ذلك السلوك مرارًا، فإن وجد ذلك القرين جزء من كيان المخلوق لبس ذلك الجزء كما يُلبس الثوب وجعله على هيئة المخلوق في وقت ممارسته لذلك السلوك، نحن هنا لا نتحدث عن قرين الإنسان أو الشيطان، بل نتحدث عن كائن له طبيعة واحدة تمثل واحدة من مشاعر المخلوق، وهو غالبًا منفصل عن المخلوق وليس كالقرين الحقيقي الذي يلازم الإنسان.

و هو يرفع رأسه لينظر في عينيّ ويكمل قائلًا:

- ما نشاهده هو قرين الحقد يتسلَّى بتكرار ما فعله (سعيد).

مسحت وجهي بكفيّ، لا إله إلا الله، ما تسمعه يثير دهشتك، وخوفك، وتشعر معه بجهلك وصغر حجمك في هذا الكون.

لم أجد ما أقول سوى:

- والآن ماذا سنفعل؟

- القصاص.

قالها في عناد.. في إصرار..قالها كأمر طبيعي ونتيجة منطقية، لذلك قلت له في حدة:

- اسمـ..

قاطعني بقوة قائلًا:

- اسمعني جيدًا، لن ننفِّذ القصاص بأيدينا.

قلت والحدة لم تفارقني:

- لن أقبل أن أكون حتى مساهمًا.

قال وكفيه يشيران لي بأنْ أهدأ :

- لن يكون لك أي شأن، والقصاص سيكون أمام الناس، وسيشهدون جميعا بأنك لم تفعل شيئًا، بل وطريقة القصاص ستجعل من المستحيل اتهامك ولو بالمشاركة من بعيد.

قلت متعجبًا:

- كيف؟

قال وهو يعتدل في قعدته:

- لقد كانت لدي خطة ولكنني استبدلتها بأخرى بعد أن عرفت أنَّ (صابر) يأتيك حيث تكون.

- لم أره سوى مرتين ولم يظهر بعدها.

- ربما أحوالك لم تلائم ظهوره، وسأقابله قريبًا لأتأكد من أمر ما، الخطة الجديدة تعتمد على أن يقوم (صابر) بالقصاص لنفسه، نحن سنمهد الأمور فقط.

قلت :

- كيف؟

قال وهو ينهض:

- سأتأكد من أمر ما ثم أخبرك بخطتي، الآن سأنصرف، لدي غدا يوم مليء بالأعمال.

التفت نحو النافذة كانه يريد فعل شيء ما، فتذكر أمرًا صرفه عنها، والتفت إليَّ يقول:

- هل جعلت لي طريقًا للخروج؟

هنا تذكرت شيئًا وقلت له:

- هناك أمر لا أعلم إذا كنت تملك له تفسيرًا، ولكنه غريب بعض الشيء.

مستفسرًا نظر فقلت:

- أسرتي، ما حدث بالأمس يثير الفزع، ولكن أسرتي تبدو كأنها نسيت ما حدث، أو كأنَّه حادثة لا تثير الاهتمام.

قال بابتسامة:

- بل كأنَّه حادثة لا تثير الاهتمام، هذه هدية صغيرة مني، فإن تكررت الحوادث او وقع مثلها أو أشد، فلن تضرهم شيئًا.

نظرت إليه هُنيهة وبدون تعليق قُدْته نحو باب حجرة المكتب المؤدي إلى حجرة ضيوف الرجال، ومنها إلى باب المنزل، وودعته امام البوابة الخارجية.

نظرت إلى ساعتي، لا يزال أكثر من ثلاث ساعات حتى الفجر، إذًا النوم هو الخيار الأفضل.

أغلقت باب المنزل وسرت إلى فراشي، لأجد (زينب) نائمة على أريكة، أيقظتها لتنام في فراشها، وسألتني وهي تفرك عينيها:

- غادر الضيف؟

- نعم.

طار النعاس من عينيها وتنبَّهت تقول:

- ماذا قال؟

- ليس الآن يا (زينب)، غدًا أنْ شاء الله، أخبرك بكل شيء.

بدا العناد واضحًا في عينيها قبل أنْ يفتر وتنهض على مضض لتسير معي إلى الفراش.

*** * ***

6

العدالة

الميزان منصوب والعدالة ستتحقق.. شئنا أم أبيْنا.. في الدنيا أو.. الآخرة.. فالعاقبة هي جنة أو نار.. السعيد فقط من يلاقي ربه و.. قد أرجح كفته من الميزان..



ماذا يريد؟ لماذا يبحث في الأمر؟ ماذا استجد في الأمر؟ سبع سنين انقضت منذ مقتل (صابر).. (صابر).. (صابر).. (صابر)..

لا يوجد دليل واحد يدينه.. زلَّة لسانه ليست دليلًا.. لكن التخلص من الرجل ضروري.. ضروري جدا.. لا يملك دليلًا؟ نعم.. هل سيعثر على دليل؟لا.. مستحيل.. كل ما.. لقد تم تدبير الأمر بعناية شديدة.. إذن لماذا القلق؟.. لماذا الخوف؟.. لماذا؟..

.. ..

لا أريده أن ينكأ جراح الماضي.. لا أريد أحدًا يذكرني بما فعلته.. لا أريد للخوف أنْ يعود.. لا أريد للحُزْن أنْ يحيا من جديد.. هل مات الحزن على (صابر)؟.. آه وألف آه يا (صابر).. تذهب الدنيا وتعود أنت.. يا ليتك تعود.. يا ليتك تعود..يا ليتك تعود.. يا ليتك تعود..يا ليتك تعود.. يا ليتك تعود..

ما فات فات.. ولن يغير الحال الأماني.. ماذا أفعل الآن؟.. لم أنجح في التخلص منه .. ويجب التخلص منه.. قد لا يملك دليلًا.. ولكنه يملك يقينًا.. يقينًا يقلقني.. يفزعني.. يخيفني.. يقينًا يذكره بجريمتي.. وأنا لا أريد من يذكرني بها.. يجب أنْ أقفل هذا الباب.. كيف؟..

(عوّاده).. رأس البلاء.. وكل شرٍّ عرفته.. ليتني لم أعرفها.. ليتني لم أر وجهها النحس.. ليتها ماتت وبقي (صابر)..

نظرت إلى ما حولي، تطوف عيناي على النِّعم من حولي في بهو قصري، على هذا الثراء.. كل هذه الفخامة.. كل هذا ثمنه دماء (صابر)، نعيم لم أهنأ به لحظة، قصري الواسع كأنه سجن.. سجن قضبانه تضيق علي حتى

تغوص في لحمي.. آثاثه.. رياشه.. آنيته.. أشواك تُغرس في عينيّ.. في قلبي.. قلبي الذي نسي الأفراح.. ما طعمها.. ما هيئتها.. ما شكلها.. قلبي لا يسكنه إلا الغم.. لا يستلذ بطعام ولاشراب.. لا يستلذ بامرأة ولا أنيس.. ليتها تذهب جميعا ويعود (صابر).. ليت (صابر) يعود وتذهب جميعًا ومعها (عوّاده).. لو أن ثمن رجوع صابر رأس (عوّاده).. لقتلتها.. وساستلذ بكل لحظة وأنا أقتلها.. يذهب السكين يغوص في جسدها ويقطع لحمها ويمزق عنقها القذر.. ويعود ليغوص أعمق ويقطع أكبر ويمزق أكثر.. ثم أفصل رأسها.. وألقي جثتها للكلاب والذئاب تنهشه حتى لا تُبقي منه إلا العظام.. حتى عظامها سأطحنها وألقيها في الصحراء البعيدة في أقذر مكان أعرفه.. وسأحتفظ برأسها.. أُحنِّطه وأجعله في مرحاض بيتي وكلما رآيته ضربته بحذائي.. كلا.. ليس بحذائي.. بل بقذارة تليق بها..

كم أتمنى لو أقتلها.. ليتني أستطيع.. الملعونة تعرف أساليب السِحْر واستدعاء الجن.. أساليب تذهب العقل ولا تخطر عليه.. لا سبيل لقتلها.. وهي أعلم الخلق بكرهي لها وحقدي عليها.. حذرة ولا تأمن على نفسها منّي.. أنها تغلق باب حجرتها جيدًا.. ولا تشاركني طعامي ولا شرابي.. وتظهر وتختفي دون علمي.. ولا أعلم أين تذهب ولا من أين تأتي..

جاءت، جاءت الملعونة تقطع خلوتي وأفكاري، نظرت إليها بكُره، ونظرت إليَّ بلا اهتمام، تعلم كُرهي وأعلم أمرها، لا تتركني لشأني، منذ مقتل (صابر) وهي لم تتركني، منذ بدأت التجارة بمالها وهي لا تتركني، بنيت قصري ولم تتركني.

تربَّعت على الأريكة الفاخرة أمامي، وأخرجت من صدرها سِيجارة وضعتها في فمها، ومن جيبها أخرجت وَلاَّعَةٌ وأخذت تشعل سِيجارتها دون أن ترفع عينيها عنّي.

نظرت لها بحقد وقلت والكراهية تشعل كلماتي:

- والآن،ماذا سنفعل؟

استفهمت وحاجبها الأيسر يرتفع وفمها يقيء:

- بخصوص؟

استفزني غباؤها وكم رغبت في لطمها على وجهها حتى أعجن ملامحه وقلت:

- الأُسْتاذ، الأُسْتاذ الذي فشلنا في التخلص منه.

أخذت نفسًا عميقًا حتى غار خداها بين عظام وجهها، وانتظرت قليلا ثم زفرت بوقًا من الدخان الكثيف وقالت متململة :

- لن نفعل شيئًا.

قلت مبهوتًا:

- ماذا؟

أمسكت سِيجارتها كأنها تحتضنها بعيدًا عن فمها، وقالت:

- ما قمنا به كان خطأً ولن نكرره، لقد أطعتك لإصرارك وكدت أن تفسد الأمر كله.

شعرت بالغضب ونهضت واقفًا أصيح بقوة :

- لكنه يعرف الحقيقة الآن.



سحبت نفسًا عميقًا من سِيجارتها، وهي تغمض عينيها ثم نفثته ومع نفاده فتحت عينيها لتقول:

- ولكنه لا يملك دليلًا واحدًا، المحاولة الأولى جعلت شكه يقينًا، والثانية ستعطيه حتما دليلًا.

نظرت لها متأملًا كلماتها، إنَّ ما تقوله صحيح، ولكنني قلت معاندًا:

- ولكنه يقول إنَّه رآني وأنا أفعلها.

اعتصرت طرف سِيجارتها عدة مرات متتالية لتنفض رمادها في منفضك السَّجائر الغاية في الجمال وتقول بعينين يقظة وأجفان ناعسة:

- وانتظر سبع سنوات! لماذا لم يخبر الشرطة؟

أوشكت أن أقول لها إن هذا ما خطر على..

قاطعني رنين هاتفي النقال، نظرت إلى رقم المُتصل، لم يكن ضمن قائمة الاتصال فلم تظهر أي بيانات.

ضغطت زر قبول الاتِّصال وأنا أرفع الهاتف إلى أذني وأقول:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام ورحمة الله يا (سعيد).

لم يكن الصوت غريبًا ولكنني لم اتذكر صاحبه فقلت:

- من معي؟

- الأُسْتاذ (عطيَّة) يا (سعيد)، هل نسيتني بهذه السرعة؟

أخذتني المفاجأة وسكت، (عطيَّة) يتصل؟ ماذا يريد؟ ولكنني استعدت نفسي وقلت :

- ماذا تريد؟

- أريد أن ألتقيك.

قلت بصوت شحذته المفاجأة والخوف :

- وأنا لا أريد.

و ضغطت زر الإنهاء، وأخذت اتنفس بقوة وسرعة، وعينا (عوّاده) تستفهم، قلت والقلق يعصف بي:

- إنَّه هو.

لم يتغير شيء من هيئتها، فقلت والضيق من غبائها يشعل كلماتي:

- الرجل الذي حاولنا أن نتخلص منه، يريد أنْ يلتقيني.

تنظر إليَّ وتفكِّر وكأنَّها لا تراني، وهيئتها كغراب البيْن، ثم قالت وهي تدير سيجارتها بالسبابة والإبهام ببطء:

- لماذا؟

ليت رقبتها بين يدي فاعتصرها حتى تموت، ولكنَّني أعرف ما يصيب كل من يلمسها من وهن وضعف، قلت بغيظ:

- لا أعلم، ولكنه فخ حتمًا.

بالسبابة والإبهام رفعت سيجارتها إلى شفتيها، ويرن الهاتف مرة أخرى، نظرت إلى الرقم.. كان هو نفسه، رفعت رأسي إلى الملْعُونة وقلت:

- أنه هو.

اعتدلت في جلستها بسرعة وهي تبعد السيجارة عن شفتيها وقالت:

- أجبه ووافق على مقابلته في مكان خاص تحدده أنت، وليكن هنا أو في أرضك.
قلت في غلٍ:
- كلا.
قالت في غضب وهي تعتصر سيجارتها بقبضتها :
- يا أحمق دعنا نعرف ماذا يريد ومن معه أو وراؤه؟!
استمريت في التحديق إليها والهاتف يواصل الرنين، حتى أوشكت مدته على الإنتهاء، فرفعت الهاتف إلى أذني بعد قبول الاتصال، وقلت:
- نعم يا أُسْتاذ (عطيَّة).
- لا تغلق الهاتف، أريد أن ألتقي بك في أمر يهمك.
- ما هو؟
- حين ألتقيك أخبرك.
- تعال إلى بيتي.
- لا، ألتقيك اليوم في مقهى القرية الساعة السابعة.
دُهشت من المكان والساعة، فكررتهما:
- مقهى القرية والساعة السابعة!
- نعم، أنا لا أثق بك وأنت لا تثق بي، وهذا مكان عام والساعة وقت الغروب.
في حذر أشبه بالبله:
- وإن لم آتي.

- اللقاء فيه خير لي ولك، وسيطوي صفحة (صابر) للأبد.

- ليكن ولكنَّ اللقاء في الساعة العاشرة.

- مستحيل، أنا لا أثق بك وقريتك بعيدة، أريد أن أذهب وأعود مبكرًا.

- ما دمت لا تثق بي فلا داعي للقاء.

- هاهاها، بالتأكيد لا أثق بك، ولكن اللقاء فيه خير لي ولك.

- هل سيأتي معك أحد؟

- لا، لهذا أريد اللقاء في مكان عام وفي وقت مبكر.

أخذت أفكر في قوله، هناك فخ ولا أعلم أين هو، وطال تفكيري حتى نبَّهني صوته.

- (سعيد)، هل لا زلت على الخط؟

- نعم، ليكن.. مقهى القرية الساعة السابعة.

- نلتقي هناك.

وضعت الهاتف في جيبي وأنا أفكر في الفخ، اللقاء فيه خير لي ولك، أي خير هذا؟ كيف يكون هذا الخير؟ لا أعلم شيئا عن أمر يجمعنا، مظهره يبدو كالفتوَّة ولكن هندامه.. هندام ناس محترمين وهو مؤلف كما يقول، فأي خير يجمعنا؟

كانت غراب البيْن تنظر إليَّ مستفهمة، قلت لها بلسان يقطع الحديد:

- لقد سمعتِ، سألتقيه اليوم في مقهى القرية عند الساعة السابعة.

تنظر إليَّ بعيون البوم، كأنّها لا تراني، ثم تكلمت:

- كن حذرًا، لا تصدر منك زلة كما حدث من قبل.

كأنني أحتاج نصيحتها، كم أتمنى لو تغور من أمامي فلا أراها أبدًا، أتمنى من كل قلبي لو أركلها بقدمي وأطحن وجهها حتى تتغير ملامحه، لكن منذ فعلت فعلتي، ومصيري ومصيرها لا يفترقان.

توجهت نحو مخرج البهو، لتناديني الجيفَة بصوت كنهيق الحمار:

- (سعيد)..

لم التفت إليها وقلت وأنا مستمر في سيري:

- ماذا تريدين؟

- سأقابله معك.

لم أهتم بالرد عليها وواصلت طريقي لأترك القصر، القصر الأغلى في الدنيا، القصر الذي ثمنه دماء (صابر)، آه يا (صابر) لو تعود.. يذهب كل شيء وتعود.. لا أنسى الليلة الملعونة حين أصررت أنا أنْ تأخذ مقصورة خاصة في القطار.. أنت ترفض بحجة فقرنا، وتوفير المال بدلا من تبذيره.. وأنا أصر عليه.. هو يرفض محبة.. وأنا أصر حتى يسهل علي قتله.. ليلة واحدة في العاصمة.. غيرت كل شيء.. ليلة واحدة ذهبنا أنا و(صابر) لنرى الدنيا في رفقة تاجر من قريتنا.. ورأينا الدنيا.. كل شيء يفعله المال.. من شربة الماء حتى امتلاك أفخر القصور وتأتيك أجمل النساء.. ليلة واحدة.. غرس الشيطان في ذهني غرسته.. غرسة سقتها (عوّاده).. ونمّتها وهي ترانا ننظر إلى الدنيا لا نستطيع أن نأخذ منها شيئًا.. حتى صارت الغرسة بعد عام شجرة.. شجرة حجبت عني الحب والمودة بيني وبين ابن عمي (صابر).. شجرة ثمارها كل شيء.. المال والنساء.. السلطان والجاه.. وكل

ما تشتهيه النفس.. وثمنها دم إنسان عزيز.. وهل هناك أعز من (صابر).. موته راحة له من فقره.. ومن عذاب الدنيا.. وعز وثراء لي.. نريد بيوتًا.. نريد الزواج.. من أين؟.. من أين ؟.. نحن فقراء.. نعمل اليوم كله عند فلان وعلان.. من أجل قوت يومنا.. ولا يتبقى منه شيئ لليوم التالي.. سنة كاملة من الجوع والتعب حتى اشترينا هاتفًا.. وكم فرحنا به.. كالأطفال في يوم العيد.. ونهرع به هنا وهناك.. ونسأل من في بيته كهرباء أنْ يشحنه.. ونعطي رقمه لكل من قد يحتاجنا في عمل.. ولم يتغير الحال كثيرًا.. وكم سنة من الجوع والمعاناة حتى نبني بيتًا.. ثم الزواج.. ثم الأولاد..

وجدت نفسي أحدق إلى أطلال عريش قديم.. العريش الذي كنا نعيش فيها أنا و(صابر)، لقد أخذتني ساقاي في غمرة أفكاري إلى أطراف القرية دون أن أشعر، لقد زال معظم جوانبها، وانحنى السقف من وسطها وظهرت نباتات الصحراء في أرضها، وسكنها كلب أخذ ينظر إليَّ وعيناه تسألني عمَّ هنا لك؟، وتلاشى الطريق الترابي الضيق بينها وبين قريتنا، طريق عبّدته أقدامنا، ودفنت الرِّياح مكان النار وأخفت الرماد، وزحفت الصحراء على المكان، كأنها تستعيد ما اغتصبناه منها.

انشغلت بالمكان والذكريات، لتطفر العبرات من عيني، وتنسال على خدي، وكأن المكان تذكرنا، فناح الهواء بين سعف النخيل المتبقية، كبكاء يشاركني الأحزان.

الملعونة.. كيف طاوعتها؟.. كيف كنت بهذه السذاجة والحماقة.. بعت الدنيا والآخرة لأجل أوهام، ثراء لم أهنأ به، قصر كأنه سجن، نساء لا لذة فيهن ولا متعة، بعت السعادة وراحة البال بالتعاسة وكدر العيش.. كيف؟.. كيف؟

* * *

قعدنا أنا و(عبد الكريم) على مقاعدنا في مقهى القرية، وقد أوشكت الساعة على السابعة، لم يكن هناك الكثير من الرجال، ولم يكن المقهى سوى عريش كبير من سعف النخيل على سقفه وجوانبه أما أرضه من الرمال النظيفة، وقد علت أصوات الرجال بالتحيات والأحاديث، وصوت النارجيلة وقد ملأت الجو برائحتها ودخانها الذي يسرع بالخروج من سقف العريش من بين السعف،ونادل شاب يلبس الثياب الريفية وطاقية صغيرة يسعى بينهم يقدم الشَّاي غالبا والقهوة والماء من صينيّة كبيرة يحملها، ويحييهم ويحدثهم شأن من يعرفهم ويعرفونه.

مفهوم المائدة ومن حولها مفهوم مكاني فقط، لأنك تجد أحدهم في أقصى يمين المقهى قد انهمك في حديث طويل مع آخر في أقصى اليسار، في حين انشغل جليسه في الحديث مع آخر على مائدة أخرى.

الجميع ينظر إلينا بفضول، ولم ينسنا أحدهم من التحية كأنَّه يعرفنا من قبل، والفضول في عينيه ينتظر منّا أن نخبره قصة حياتنا، هذه هي طباع أهل

القرية التي تركتها منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، طباع أعرفها ومعتاد عليها.

وضع (عبد الكريم) يده على المنضدة ومال نحوي يقول:

- تذكر مهما حدث لا تترك المكان.

قلت في حذر دجاجة ترقب سكين الجزار:

- مهما حدث؟

قال مؤكدًا:

- نعم، مهما حدث لا تترك القهوة، حتى لو تركها الجميع حتى أخبرك أن تغادر.

قلت في حذر دجاجة ترقب الجزار يقترب منها بسكينه:

- والمنديل؟ ما قصته؟

- فيما بعد.

نظر إليَّ بملامح جعلها سؤاله:

- ما بك؟

قلت في حذر دجاجة ترقب الجزار وقد أمسك جناحيها وسكينه تقترب منها :

- أشعر كأننا نعد لجريمة.

فتح فمه ليتكلم ولكنه سكت والنادل يقترب منّا ويضع الشَّاي على مائدتنا وهو يقول:

- أي حاجة ثانية يا سادة؟

قال (عبد الكريم) :

- شكرًا، لكنَّ لدي سؤال بسيط؟

قال النادل وهو يعدل طاقيته:

- اسأل.

مال (عبد الكريم) نحوه وقال:

- سؤال غريب قليلًا، هل تغيَّر شكل وترتيب القهوة منذ سبع سنين؟

قال النادل وهو يعيد طاقيته لحالتها الأولى ويمسك ذقنه مفكرًا عميقًا في هذا اللغز:

- سبع سنين.. سبع سنين.. امممم.. لا أظن، نفس الترتيب منذ أنْ بناه (عوض) رحمه الله.

قلت له:

- الحمَّام أو المِرْحَاض، هل تغيَّر؟

دُهش من سؤالي وقال وهو ينظر إليَّ كأنَّه يراني أوَّل مرة:

- المِرْحَاض؟.. لا.. لا أظن.

قال (عبد الكريم) ليصرفه عن التفكير في أسئلتنا الغريبة :

- وهل الأرض التي عليها القهوة ملك لـ (عوض) رحمه الله.

- لا، الأرض ملك (صالح) ابن الحاج (سويلم).

هذه كانت من الرجل الجالس إلى المائدة بجوارنا، مما يعني أنه جالس معنا فعليًا، قلت للنادل :

- أين المِرْحَاض؟

أرجع النادل نظره إلي، وعيناه لا تجد تعبيرًا تعطيه لي، كأنني كائن لا يعرف كنهه، وأشار نحو مدخل العريش وهو يقول:

- إلى يمينك.

خرجت إلى المِرْحَاض وأنا أفكر في الأمر كله، وتحسست بيدي المنديل في جيبي، لا أعلم سره ولا لماذا أعطاني إياه (عبد الكريم)، ولكن لابد أنه له علاقة بما نحن فيه، لم أكن في حاجة إلى دخول المِرْحَاض، ولكنني رغبت في رؤية المكان الذي دخله (سعيد)، المكان الذي دخله وقت ارتكابه الجريمة، لم يكن بعيدا عن المقهى، بل مجاورًا له ولكن لا يلاصقه، وبُني كله من الصفيح الذي تآكل مع الزمن، وغطاه الصدأ، دخلت وأغلقت الباب الصفيح من خلفي، كان المِرْحَاض قديمًا ولكن أرضيته الأسمنتية نظيفة، ويحتوي سطْل ماء كبير وكوز، بالإضافة إلى صنبور ماء أُوصل به خرطوم وعُلِّق به، هنا وجدت ما أبحث عنه، كانت معلقة على الباب من الداخل، شظية كبيرة من مرآة، كانت آثار التثبيت بمادة (السليكون) تُخبر إنها كانت مرآة كبيرة في ما مضى، قبل أن تُكسر ولا يبقى منها سوى هذه الشظية الكبيرة.

المكان يخبرني أنه قليلا ما يُستخدم، لعل النادل وحده من يستخدمه، بللت يديّ وخرجت عائدًا إلى المقهى.

قعدت على مقعدي و(عبد الكريم) يشرب الشَّاي بتأنِّي، وقلت:

- توجد بقايا مرآة في المِرْحَاض .

- هدية من رجال الق.. ترررن.. لـ(عوض) رحمه الله.. ترررن.. بنى القهوة.

هذه من الرجل الجالس إلى المائدة التي بجوارنا، يعلق بها على ملاحظتي لـ (عبد الكريم)، الترررن.. صوت هاتفي وليس منه، نظرت إلى هاتفي، كانت الساعة السابعة وخمس دقائق ولم يأت (سعيد)، أجبت على الهاتف ليأتيني صوت (سعيد) :

- من هذا الذي معك؟

- رجل تعرَّفت به حين جئتك المرة السابقة.

- قلت أنك ستأتي وحدك.

- حين تأتي سنجلس على مائدة خاصة بنا.

ساد صمت طويل قبل أن يقول (سعيد) :

- هل سنتكلم في موضوع (صابر)؟

قلت صادقًا :

- لا.

صمت مرة أخرى ثم قال:

- أنا قادم.

و أغلق الخط.

قلت دون الالتفات إلى (عبد الكريم) :

-إنَّه قادم.

قضيت الوقت في تقليب وجوه الحاضرين وارتشف من كأسي حتى انقضت خمس دقائق، ليظهر (سعيد) على مدخل المقهى، وجال ببصره في الوجوه يتفحصها، وأخذت أصوات الرجال تخفت حتى اختفت، والعيون كلها تنظر إليه، وتوقف ببصره علي وتقدم نحوي ومن خلفه هيئة أعرفها، هيئة (عوّاده).

لم يكن قد قطع نصف المسافة نحوي حين صرخ بخوف وذعر:

- (صابر).

التفت إلى حيث ينظر ورأيته، رأيت (صابر) يمشي متمهلا بين الموائد نحو (سعيد)، وجهه ممتلئ بالغضب والحقد، الغريب أن جميع الحضور يرونه وقد شلّتهم الدهشة والرعب والعيون تحدق إليه مذهولة، حتى النادل فغر فاه وصار تمثالًا.

فقط (عوّاده) حين سمعت صرخة (سعيد) تجاوزته، ونظرت إلى (صابر) ثم إليَّ ثم إلى (عبد الكريم) ثم استدارت تركض خارجة من القهوة، ونهض (عبد الكريم) يركض ووراءها.

لم أترك مكاني لوصية (عبد الكريم) وراقبت (صابر) وهو يقترب من (سعيد)، لم تهزّني رؤية (صابر) بخلاف الأخرين، أما (سعيد) فقد هدّه الخوف والرعب وسقط على ركبتيه وهو يقول بصوت مبحوح مختنق:

- (صابر).

- نعم (صابر) يا (سعيد).. (صابر) الذي قتلته.

كنت أتمنى أنْ يكون صوته (شبحيًا) مع كثير من الصدى و(ها ها ها) كما تفعل الأشباح المحترمة في عالم السينما، لكن صوته كان قويًا واضحًا بدون صدى أو ها.. ها، كان صوت (صابر).

هنا بلغ (صابر) (سعيد) وقال بقوة:

- لماذا قتلتني؟

رغم علمي أنَّ (سعيدًا) قاتل، إلا أنني شعرت بالرثاء لحاله، ساقطًا على ركبتيه أمام (صابر) ويتكلم بسرعة دون أن يخرج صوت منه ويلوح بيديه، ثم طفرت الدموع من عينيه وانسالت على وجهه حتى بدأت تتساقط على جانبي فكه، وهنا عاد صابر يقول بقوة:

- لماذا قتلتني؟

في هذه اللحظة ذهب الخرص عن (سعيد) وهو يقول بين دموعه:

- تذهب الدنيا وترجع يا (صابر)، والله يا ابن عمي أنت كل الدنيا، والله لم أذق طعم لراحة البال من بعدك، والل..

- لماذا قتلتني؟

بدا صوت (صابر) (شبحيا) أو هكذا تخيلته ولكن بدون (ها ها)، زادت دموع (سعيد) انهمارًا ولم يتغير حال الجميع في المقهى، حتى أنا رغم أنَّ مشهد (صابر) كان مجرد مفاجأة صغيرة تجاوزتها بسرعة، إلا أنَّني لم أتحرك من مكاني، كنت مشدودا للمشهد بكل حواسي، دخان النّارجيلة نفسه كأنَّه تجمَّد في الهواء، وظلمة غريبة غمرت المكان رغم أن غروب الشمس سيحل بعد عدة دقائق، ودوت صيحة (سعيد):

- (عوّاده).

نطقها بكل حرقة كأنها طوق نجاة أُلقي له لينقذه من نار العذاب، وهو يكمل بينما يدير رأسه يمنة ويسرة كأنه يولول:

- (عوّاده) وعدتني بالدنيا، (عوّاده) قالت إن موتك راحة لك وحياة لي، (عوّاده) وعدتني ومنّتني، (عوّاده) قالت إن موتك سينقذك من حياة العذاب، (عوّاده) قالت أنك ستعيش وتموت دون أن تنال شيئا من الدنيا سوى العذاب، أنا كنت أحمق وصدقتها، أنا صدقتها يا أعز النا..

هنا صمت (سعيد).. صمت للأبد.. صمت وماتت الكلمات على شفتيه.. صمت وهو ينظر إلى (صابر).. صمت ودموعه لم تتوقف لحظة.. صمت والخنجر يغوص في صدره، صمت واحتفظ بهيئته.. صمت ولم يسقط.. صمت و(صابر) يتلاشى من أمامنا جميعا.. وبقى (سعيد) ينظر إلى لا شيء..

وزاغت عيناه نحوي وبهزة صغيرة من أصبع يده التي لم تغير من هيئتها، أدركت انه يريدني أن أقترب، رغم نشأتي في الأرياف وأعرف الثأر والقتل، إلا أنَّها المرة الأولى التي أشهد فيها عملية قتل تقع أمامي، مشهد هزَّني حتى النخاع، مشهد جعلني أشعر أنني في بحر من الضباب تطل منه وجوه الناس، نهضت وسرت نحو (سعيد) والأرض كأنَّها فوق بحر تتلاطم أمواجه، اقتربت منه ورمش بعينه بمعنى أن أقترب أكثر، أقتربت وشفتاه تنطقان بكلمات بطيئة لا اسمعها، اقتربت أكثر حتى أوشكت أذني أن تلامس شفتيه وسمعته يقول:

- شك.. شك.. را.. أل.. ف.. شك..

وسقط.. سقط على ظهره دون أن يتغير شيء من هيئته.. فقط انتقل من الوضع العمودي إلى الوضع الأفقي.. مشهد لا يمكن تخيله.. وكفاه مفتوحتان أمام صدره كأنه يدعو.. وعيناه شاخصتان تنظران إلى عالم آخر.. عالم صار هو فقط من يراه.

سقوطه أزال الجمود من المقهى، وتعالت أصوات الرجال بعبارات التوحيد والحوقلة ومنهم يصيح بكلمات عن الجن والأشباح ومن ينادي بالإسعاف أو الشرطة.

مددت يدي وأغمضت عيني (سعيد) وأنا أردد.. لا إله إلا الله.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

صار المقهى كأنَّه سوق بضاعته (سعيد)، وامتلأ بأهل القرية كل منهم يريد أن يعرف ماذا هناك، وكل من شهد الحادثة يرويها، ألسن كثيرة لقصة وحيدة، (سعيد) قتل (صابر) و(صابر) قتل (سعيد)، كلمة من هنا والتكملة من هناك.

في هذه اللحظة عاد (عبد الكريم)، يبدو أن (عبد الكريم) يشاهد ألف عملية قتل يوميًا، وربما له محل جزارة بشرية، لقد دخل المقهى ونظر إلى جثة (سعيد) كأنه ينظر إلى شاه معلقة في محل جزارة، نظر إليَّ وأشار بإبهامه يدعونني إلى الخروج من المقهى.

*   *   *

يقولون أن دخول الحمَّام ليس كالخروج منه، وهذا صحيح، صحيح تمامًا، أنت تذهب إلى الحمَّام وأنت تحمل فكرة وحيدة وقد كفَّ بصرك فلم تعد ترى سوى السبيل إلى الحمَّام ، وذهب سمعك فلا تسمع إلا إرشادات الوصول إلى الحمَّام ، وخرص لسانك إلا من كلمة واحدة، وانحنى ظهرك وتركت هموم الدنيا وأصبح همك الوحيد الوصول في الوقت المناسب.

أما الخروج فهو عكسه تمامًا، استقام ظهرك وعاد إليك كامل سمعك وبصرك، وانطلق لسانك، وأصبحت هموم الدنيا هي همومك، وثقب الأوزون لماذا لا يفعل أحد شيئا لأجله، هه.. لماذا ؟

كان لابد من هذا الخروج عن الموضوع، لتفهم شعوري وأنا أجد نفسي في مواجهة رجال الشرطة على مدخل القهوة، كيف وصلوا؟ وصول رجال الشرطة لهذه القرية يحتاج ساعة على الأقل.

لا، لم يلقوا القبض علينا، ولكن احتجنا أربع ساعات كي يتركونا، أربع ساعات من التحقيق وسؤالنا عن (سعيد) و(صابر) وعلاقتي بهم وعلاقتي بـ (عبد الكريم) وعلاقتي أنا و(عبد الكريم) بهم، طبعا كررت قصة الكاتب الذي يؤلف كتابا عن أغرب الجرائم وأن (عبد الكريم) صديقي، جاء معي من باب الترويح عن النفس، من فضل الله أنَّ أهل القرية كانوا شهودًا على ما حدث، وإلا كان خروجنا عسيرًا، والحقيقة أنَّ الشرطة تعاملت مع تفاصيل الحادثة كنوع من خرافات القرويين، ولكن إجماع أهل القرية على رواية الحادثة - حتى من لم يرها رواها كأنه رأها- جعل من المستحيل على

الشرطة توجيه الإتهام لأحد بعينه، وفي النهاية تم إخلاء سبيلنا مع الاحتفاظ بالعنوان ورقم الهاتف.

- كيف علموا؟

هتفت بهذا السؤال وأنا أقود سيارتي متجها إلى بيتي وإلى جواري يجلس (عبد الكريم)، والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلا.

-أنا من جعلت أحدهم يهاتفهم في الساعة السابعة أن جريمة قتل ستحدث في ذلك المكان في الساعة السابعة والنصف.

التفت إليه مدهوشا وبالسؤال صفعته:

- لماذا؟

- حتى يتم القبض على (عوّاده)، الغريب أنهم جاءا مبكرين، و(عوّاده) هربت.

لم أرفع عيني عن الطريق وأنا أردد كلماته :

- مبكرين!.. هربت!

رأيته من طرف عيني يخرج شيئًا من جيبه ويقول:

- كنت أحسبهم سيصلوا بعد الثامنة ولكنهم وصلوا قبلها بقليل، وكنت أحسب أن (سعيدًا) سيحضر وحده، ولكن (عوّاده) جاءت معه، لقد رأت ما حدث وفهمت كل شيء وفرّت، ركضت وراءها ولكنها دخلت حقل ذرة واختفت فيه، وهذا ما سقط منها.

التفت إلى ما يمسكه بيده، فإذا به منديل صغير مطرز الجوانب وحلقات لامعه صغيرة معلقة على جوانبه، كان منديلا مثل الذي تضعه النساء على رؤوسهن في الأرياف في منازلهن، ولكن طابع الغجريَّة واضح فيه.

أعدت نظري للطريق الطويل وأنا أقول:

- هه.. وما فائدته؟

- سأصل به إلى (عوّاده).

ساد الصمت بيننا وسرح كل منا في أفكاره، والسيارة تطوي الطريق الشبه خال إلى بيتي، لا يزال أمامنا أكثر من ساعة حتى نصل.

- ماذا قال لك؟

أخرجني (عبد الكريم) من أفكاري بهذا السؤال، ولم أفهم من المقصود منه، فاستوضحت:

- من؟

- (سعيد).

قلت وأنا استعيد المشهد الحزين، وكياني يسترجع الحادثة:

- لقد.. لقد شكرني.

لم يعلق على قولي وعاد الصمت من جديد حتى تذكرت شيئا، وقلت:

-(عبد الكريم) ؟

- أمممم.

- ما قصة المنديل الذي أعطيتني أيَّاه.

- المنديل؟مممم، (صابر) كان يستطيع الوصول لك في أي مكان لشيء ما فيك ولأنَّك حملت معك شيئًا ما من المقصورة في القطار، شيء ساعد (صابر) في الوصول إليك.

- ما هو هذا الشيء؟

- لا أعلم، ولكنه غالبًا جزء من (صابر) أو (سعيد) أو كلاهما.

قلت والدهشة في كلماتي:

- ولكن الحادثة وقعت منذ سبع سنوات، وآلاف الناس دخلت المقصورة قبلي.

قال صوته منبها:

- دائما تقيس الأمور تبعًا قوانين عالمنا الذي نعيشه، عمومًا فجأة لم يعد (صابر) قادرًا على الوصول إليك، أعتقد - وهذا استنتاجي - أن ملابسك وملابس زوجتك تم غسلها جيدا لذا انقطع الرابط، لذلك عبَّقت المنديل بعبير الروح، حتى يستطيع (صابر) الوصول إليك، كما تحدثت مع (صابر).

لم أسأله ما عبير الروح، فهو كالعادة شيء ما، لكن مع كلامه جاش صبري بألف سؤال وفكرة وهذا جعلني أقول:

- ألا ترى أن هذا غريبًا، أشباح تفكِّر وتتكلَّم وتقتل؟

- لا، لا أراه غريبًا، الأشباح تظهر وتفعل أشياء مختلفة وعلى هذا شواهد كثيرة، لكن متى تفعله؟ هناك شروط لذلك.

شدَّني حديثه وسألته:

- ما هي هذه الشروط؟

- أنْ تتشابه ظروف عالمنا مع عالم الأرواح، الأرواح تظهر في الظلام، وفي الأماكن الخالية حيث ينخفض الضجيج بشكل كبير، مع درجة حرارة منخفضة وهذا الشرط نسبي، والشرط الأهم أنْ يكون المخلوق قد ترك جزء من كينونته في ذلك المكان، وهذا لا يحدث إلا في حالة أن يعيش المخلوق في مكان واحد ما فترة طويلة جدًّا أو تعرض لحادثة أو انفعال قوي جعل جزء من كينونته في ذلك المكان.

- هل تعني أنه لو حققت هذه الشروط في مكان ما فستظهر أشباحه.

- حتمًا.

- إذا لاستحضر الناس شبح من يريدون، كل إنسان يحب إنسانا فإنه سيستحضر شبحه.

- جميع الناس يدركون هذه الشروط في عقلهم الباطن، لذلك تجد أن قصص الرعب تبدو مرعبة وعميقة في الليل، وخاصة ليالي الشتاء الباردة المطيرة حين تخف حركة الناس ويسود السكون، لأن النفس أدركت أن الظروف مواتية لظهور الأشباح وانكسر الحاجز بين عالمها وعالم الأرواح.

- ولكن هل سيحدث بالطريقة التي فعلها (صابر).

- ربما ولكن ما حدث مع (صابر) كان لي فيه دور كبير، بمساعدتك والمنديل أحضرته إلى المقهى، بوسائلي جعلت طبيعة المقهى تقترب من طبيعة عالمه، لقد رأيت (صابر) ورآه الجميع، أليس كذلك؟

التفت إليه وحديثه يفسر لي الكثير وأجبته:

- نعم، لقد لاحظت ذلك.

هنا تذكرت أمر الظلمة التي حدثت، لم تكن وهما، بل.. وسألته:

- هل أنت من أفتعل الظلمة؟

- (صابر) والظلمة والخنجر، كلها من إعدادي.

- حتى الخنجر!

- نعم، حتى الخنجر.

سكت قليلا ثم قلت:

- ألم تشعر أنَّ (سعيدًا) كان مخدوعًا؟

- هو أدرك الحقيقة قبلنا، وكان يريد القصاص ولكنه يهابه.

- ألا تشعر بتأنيب الضمير؟

- إنها العدالة، هل تشعر أنت؟

- أشعر بالحزن لأجل القصة كلها، لكن تأنيب الضمير!.. لا.. لا أظن.

صمتنا وطال صمتنا حتى قطعته بقولي:

- سأوصلك لبيتك أولا.

- لا داعي لذلك، حين ندخل المدينة سأنزل وأذهب بمفردي.

- لا تريدني أن أعرف منزلك.

ضحك لأول مرة في هذه الليلة الكئيبة وقال:

- بل من الضروري أن تعرف بيتي ولكن ليس الليلة، لا أريد لأسرتك أنْ تقلق أكثر، لقد اتصلت زوجتك عدة مرات ولا داعي لزيادة قلقها.

سألته من باب الثرثرة فقط:

- وزوجتك، هل تظن أنك عند الأخرى؟

ضحك ضحكة خفيفة وأجابني:

- أنها تعلم أنني لا أملك وقتا لأخرى، ولكنها اعتادت غيابي، لذلك اتصلت بي مرتين فقط.

ضحكت وأنا أبطئ السيارة، فقال بدهشة:

- لماذا تبطئ؟

- محطة وقود، السيارة تريد شرابًا.

*** * ***

7

الخاتمة

هل هي النهاية حقا؟ .. هل هي قصة وحيدة من القصص الغريبة التي قد يعيشها واحدا منا!.. هذه هي أمنيتي.. ولكن هل ستتحقق؟ ..



أسبوع وتنتهي إجازتي، وقبل نهاية الأسبوع بيومين تكون الإجازة الصيفية قد بدأت، لكن يجب العودة للمدرسة للأعمال الروتينية الختامية، لقد كانت إجازة في أصعب فترة من فترات الدراسة، فترة نهاية العام الدراسي.

كنت بعد العصر أتفقَّد الأرض خارج سور منزلي من جهة الريف، بيتي وبيوت جيراني من الشمال والجنوب أشبه بطوق يفصل بين عالمين، المدينة والريف، أمامنا المدينة بزحامها وحيويتها ومبانيها العالية ومن ورائنا الريف بهدوئه وسكونه وخموله، ومبانيه التي لا تتجاوز الطابقين، والمساحات الواسعة تفصلها.

أحببت بيتي حين رأيته لأوَّل مرَّة قبل شرائه، كأنَّه يقف بين عالمين، عالم الريف الذي نشأت فيه بهدوئه وجماله، وعالم المدينة بحيويته وسرعة الوصول لما تريد.

عادت أفكاري تسرح في الأحداث الماضية وأتأملها.. قراءة الأفكار.. الدكتور (مصطفى الغريب).. شبح (صابر).. (سعيد).. (عوَّاده).. (عبد الكريم).. مقتل (سعيد).. هل ما حدث معي لكي تقودني الطريق إلى (صابر).. لأجل القصاص له.. هل أنتهى موضوع قراءة الأفكار.. أم سيعود لأجل أمر آخر.. و(عبد الكريم)..

اجتاحني شوق غريب لزيارة (عبد الكريم)، شوق ذهب به صوت جاري (أبي صلاح) يناديني.

التفت إليه وهو قادم من ناحية البوابة الخلفية لبيته، بلغني وأخذنا نتحدث وهو يطمئن على صحتي وأخذنا الحديث ونحن نسير الهُوَيْنى في اتجاه الريف، قبل أنْ يتوقف ويقول في ارتباك وهو منشغل في هاتفه:

- هناك موضوع أرغب في عرضه عليك.

سألته بأريحية:

- ما هو يا (أبا صلاح)، نحن أهل وجيران.

هزَّ رأسه يقول:

- وأكثر يا (أبا أحمد)، وأكثر.

أكثر؟.. هل يكون أخًا مفقودًا منذ الصغر وعثر علي أخيرًا.. لا أظن.. هل يكون من..

مد يده بالهاتف ليضعه أمام وجهي ويقول :

- هذا.

كانت صورة لابنه (صلاح) مبتسمًا ويعاكس شخصًا لا يظهر في الصورة، وقد تم حذف الخلفية ليبدو وكأن الضياء يتدفق من وراءه ليظهر حدود جسده.

قلت والابتسامة في وجهي وألف سؤال في جوفي:

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. الله يحفظه.

لم أفهم مُراده من الصورة، وخاصة أنني أعرف ابنه (صلاح)، وقد أدرك هو عدم فهمي فقال:

- هذه صورته وخلفه منزلك.

قلت ومقصوده لم يصلني بعد:

- يبدو أنَّكم استبدلتم الخلفية بالضياء.

قال وهو يعيد الهاتف إليه ليفعل شيء ما، ثم يضعه أمام وجهي :

- لا.

كانت صورة أخرى ولكن لابنته تضحك وترسم علامة النصر بيديها والضياء من خلفها، وأيضا لم أفهم مُراده، وقلت:

- ما شاء الله.. ماذا تعني بـ (لا).

نظر إلى وجهي مدققًا، كأنَّه يخشى أن يفوته شيء من تعابيره وقال:

- بيتك يا (أبا أحمد).. بيتك لا يظهر في الصور.

*** * ***

هدووووء.. هدووووء.. هدوء.. لا داعي للقلق والانزعاج، ولنرسم ابتسامة جميلة ونسأل جارنا الطيب (أبا صلاح) :

- ماذا تعني بأنَّ بيتي لا يظهر في الصور؟

مط شفتيه كسمكة تبحث عن رزقها وقال:

- هذه الحقيقة.

و اقترب مني ليضع كتفه على كتفي حتى يستطيع استخدام الهاتف دون أنْ يرفعه من أمام وجهي وقال:

- انظر.. هذه صور الأولاد وأنت ترى وراءهم منزلنا ومنازل الجيران، لكن حين يكون بيتك أو جزء منه في الصورة، يظهر بدلا منه طيف أبيض فقط.
ما هذا الذي يقوله؟ كيف لا يظهر بيتي في الصورة؟ ولماذا؟
الحيرة ظهرت واضحة على وجهي، وأنا أفكِّر في الأمر وسألته:
- متى حدث هذا؟
رفع كتفيه بمعنى أنَّه لا يعرف، وأشرت له بالعودة وأنا أفكِّر في الأمر وقد شغلني، وأبحث عن تفسير لا أعلمه، وجاري يتحدث وأنا لا أسمعه، وافترقنا عند بيتي وذهني لا يتوقف في بحث الأمر، حتى أنني نسيت دعوته لكأس من الشَّاي كعادتنا.
دخلت حديقة منزلي ووقفت أنادي ابني (أحمد) حتى جاء راكضا ويسألني في قلق:
- ماذا هناك يا أبي؟
قلت وأنا أرفع هاتفي أمامي:
- صورة.
التقطت له صورة وهو مدهوش من ندائي له بهذا الإلحاح لأجل صورة.
نعم صورة يا بن المؤمنة، أريد أن أتأكد مما قاله جارنا، وما قاله صحيح، صورة ابني (أحمد) واضحة ومن خلفه ضياء أبيض يُظهر محيط هيئته.
حدّقت إلى الصورة، وابني (أحمد) يتكلم ولا أسمعه حتى أخرجني من تحديقي وهو يقول :
- أبي.. أبي.. كيف فعلتها؟ هل هو برنامج جديد لتحرير الصور؟

نظرت في اتِّجاه الصوت.. من أين هذا الصوت؟.. نعم.. هذا ابني (أحمد).. لقد أبصرته الآن..

هززت رأسي بقوة نفيًا ثم صحبته إلى داخل البيت والتقطت صورة أخرى له، كانت صورة عاديَّة، مظلمة قليلا نعم.. لقد تبقت ساعة حتى غروب الشمس، ولكنَّها عاديَّة.

أتت (زينب) ومعها (معتصم) يحمل كتابًا، نظرَت إلى وجهي لتدرك أنَّ هناك شيئًا يشغلني، أخبرتها بما قاله جاري، فبُهتت، أما (أحمد) فقال :

- هل تعني أنَّ الضياء موجود وليس تح..

قاطعته أمه وهي تقول مترددة :

- (عطيَّة).. هل تعتقد أن السبب هو تلك الأشياء؟

نظرت إليها وعقلي يبحث عن أي أشياء تقصد وجعلتها سؤالي:

- أي أشياء؟

أشارت بسبابتها لأعلى وهي تقول:

- التي قمت بوضعها مع (أحمد).

لقد نسيتها تمامًا، لقد قال (عبد الكريم) أنها تفسد خاصية من خواص الضوء التي تساعد على الانتقال، فهل هذا من آثارها؟

التفت إلى (أحمد) مستعجلًا إيَّاه:

- هات السُلَّم وتعال خلف البيت.

ذهب ليأتي به وخرجت وخلفي (زينب) و(معتصم)، وقفت انظر للقطعة حتى جاء (أحمد)، قلت له أن يصعد على السُّلَّمُ ويحجب القطعة بيده، فعل كما

قلت وأخذت له صورة بهاتفي، نظرت لها.. كانت صورة عاديَّة وشعرت بـ (زينب) تمطُّ رأسها لترى و(معتصم) يحاول أن يتطاول كي يرى وهو يقول :

- دعوني أرى.. دعوني أرى.

أريته الصورة قبل أن يقول:

- صورة لي أنا أيضًا.

يظنها لعبة أو تسلية، نهرته أمه وقلت لـ (أحمد) أن يرفع يده، والتقطت صورة أخرى، كانت صورة (أحمد) والضياء من خلفه، لقد ظهر السر.

التقطت صورة لـ (معتصم) وأغلقت الهاتف، أحتاج أن أقابل (عبد الكريم) حتى أستوضح وأتأكد.

* * *

وقفت أمام بوابة المدرسة، انظر إلى الشارع أمامها وأراقب حركة السيارات.

كانت المدرسة خالية وقد بدأت الإجازة الصيفية، وقد انهمك الأساتذة في تصحيح الامتحانات وإعداد الشهادات وانهمكت مع نائبي في الإجراءات الختامية، كانت الأمور طيبة، وبدا أنَّ الجميع نسي ما حدث، وقد أسرني هذا كثيرًا.

نظرت إلى يميني لأجد ولدا صغيرا ينظر إليَّ متأملًا، وهو يشرب من علبة عصير صغيرة بواسطة قصبة، تأملته بدوري، لا شك أنَّه سعيد بانتهاء العام الد..

***.. يااا بطنه.. كبيرة.. كبيرة.. كبييرة.. قدُّ الدنيا.. و.. ***

صحت في قوة :

- ولد..

نظر لي في رعب وفزع كأنَّني عرفت ما يفكر فيه، وألقى علبة العصير وهو يركض مبتعدًا..

و انطلقت من غير وعي مني ضحكة، ضحكة لم أضحكها منذ زمن طويل، رُبَّما منذ أيام الصِبَا..

ياها.. هاها..ياها.. هاها..

ها.. هاهاه.. يا.. هاهاه

ههاه..

ياها.. هاها..ياها.. هاها..

ها.. هاهاه.. يا.. هاهاه

ههاه..

ياها.. هاها..ياها.. هاها..

ها.. هاهاه.. يا.. هاهاه

ههاه..

تمت بحمد الله

الغَيْهَبُ

الرواية القادمة



النور والظلام

أخذت مجلسي على الأريكة، وأنا أفكر بعمق في الأحداث السابقة، وانهمكت في أفكاري، حتى قطع تفكيري ظِل أسود، ظِل أسود لشخص ما ينتصب أمامي، رفعت رأسي.. لم يلفت انتباهي أنَّ الظِل يتعارض مع زاوية الضوء، ولا سواده الشديد، بل أنَّ الظِل منتصب أمامي كفجوة في الفراغ، أو لوح شديد السواد لا يعكس شيئًا من الضوء تم قصَّه على هيئة إنسان، ولكن الحقيقة أنَّه ظِل.. ظِل بلا جسد.. ظِل لا يتكئ على موجودات..



للكاتب إبراهيم محمد

الغَيْهَبُ

حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصير الواقع ضربًا من الخيَّال

1 - بدايات مُخِيفة
2 - النور والظلام
3 - العَهْد الجديد (بمشيئة الله في المستقبل القريب)

الرِحْلة

رِحْلة إلى حدود العَالم.. لمعرفة الحقيقة
وإجابة سؤال.. أكروية هي أم مسطحة

1 - الرحيل ج1
2 - القصَّابون ج2
3 - وادي الصمت ج1 (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
4 - الرَاهِب ج2

عالم جديد

عالم ينهض من رماد حرب طاحنة
يبني حاضره.. وينظر مستقبله

1 - النهوض
2 - العودة إلى الصفر (بمشيئة الله قريبًا)
3 - أوار الماضي
4 - العائدون ج1
5 - طلائع الشرِّ ج2

البُسْتان

روايات تبحث لها عن ملجأ

1 - رواية خلاعيَّة
2 - الأبواب
3 - مملكة الأحزان (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
4 - الله والشيخ والشيطان وأنا
5 - طريق الخُلُود
6 - ثلاثون من المائة
7 - ألف ألف إله
8 - فجوة في جدار المُستقبل

الفُنْدُق

قضايا وتحقيقات

1 - جميلة الجميلات
2 - بِيعَ (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
3 - خصوصية
4 - جُثَّة لا تحب القبور
5 - ساعة تُنادي النهاية

ما وراء النهاية

مع كل نهاية بداية جديدة

1 - كنوز الملك سليمان
2 - الرجل الخفي (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
3 - رحلة إلى مركز الأرض
4 - جزيرة الكنز

 Wordsonsnowtablet@gmail.com
 Wordsonsnowtablet



1

الغَيْهَبُ
حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيَّال



إبراهيم محمد

بدايات مُخيفة

- كيف؟ لا أعلم، ولكنه هو من قتلني ولا..
في هذه اللحظة وكأن سيفا خفياً جزّ عنق (صابر) إلا قطعة صغيرة ليسقط رأسه على صدره.. رغم إنني رأيت هذا المشهد أكثر من مرة فإن نفسي لم تألفه، ودب الرعب في قلبي وانطلقت مني صرخة عالية كتمتها بيدي قبل أن تمتد.. في حين واصل شبح (صابر) حديثه كأن شيئًا لم يكن:
-.. أعرف كيف فعلها، و(سعِيد) وأنا لا نذهب للمقهى أبدا.
يبدو أن الأشباح لا تحتاج حنجرة وأحبال صوتية..

الرواية القادمة

النور والظلام